روايات أحلام

من أجل نظرة

fafoura
www.liilas.com

30105 012245909

من أجل نظرة

يكذب الإنسان أحياناً لكي ينقذ نفسه، ولكن من يرضى أن يشارك في كذبة يعلم أنها ستوقعه في فخ؟

عصفت روح المغامرة في دم روكسان الفتاة الرصينة فلم تتردد في القول: نعم... أنا خطيبة هذا الرجل!

في البداية، رأت روكسان تسلية في خطوبتها لرجل لا تعرفه.

ولكن لكل كذبة ثمن يجب دفعه، وهكذا وجدت نفسها وسط أراضٍ موحشة محاصرة بين رجلين: خطيبها المزعوم وأخيه الغامض القاسي الذي أعلن كراهيته لها وأجبرها على تسديد ديون لا ذنب لها فيها..

www.liilas.com

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمارات ٦ د.	مصر ٤ ج.	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س.	قطر ٦٠٠ ر.	المغرب ١٥ د.	اليمن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تونس ١٫٥ د.	السودان

١ ـ أنت خطيبتي!

انهمر الثلج ليلاً وعندما نزلت روكسان إلى الطابق الأرضي في الصباح، كانت الدنيا من حولها بيضاء صامتة.. توقفت بضع دقائق أمام الباب المفتوح بعدما تركت كلبتها «البودل» الصغيرة «فلوفي» تخرج. ثم ألقت نظرة إلى ما وراء الحديقة، إنها تحب هذه الجبال التي تبقى جميلة على مدار العام، ولكنها لا تحب البرد. ولهذا لم تقل شيئاً عندما أحضرت لها أمها بطانية إضافية لتضعها في السيارة، وقالت لها:

ـ إن اضطررت للنوم في السيارة يا روكسان احتجت إلى هذه. ولكن حاولي دائماً النوم في فندق أو نزل عوضاً عن التخييم.

وتبادلت الجدة نظرات التفهم مع حفيدتها.. فكلتاهما تعرف أن نصف اللذة في العطلات هو النوم في العراء أو الإقامة حيث يقود الهوى، والجدة تفهم هذا ولكنّها تعلم أن زوجة ابنها لن تفهمه أبداً..

سألت وهي تعرف أنه سؤال سخيف: «لا يتساقط في الغرب الثلج.. أليس كذلك؟»

فأجابتها ساندرة: «لم أذهب إلى هناك قط»

وأرادت أن تسأل إن كانت ابنتها واثقة من عدم نسيان شيء ولكنها تذكرت أن لروكسان ذاكرة رائعة. وهذا ما كان يجب أن تملكه في مهنة التمريض التي اختارتها.

وراحت الجدة تفكر في الأوقات التي قضتها هذه الفتاة في دراسة التمريض وفي الدرجات المشرفة التي نالتها، ومع ذلك لم يؤثر هذا في تواضعها وحبها للناس والحياة. كان طموحها منذ السادسة عشرة من عمرها أن تصبح ممرضة متخصصة أو طبيبة، وحققت هدفها وهي في الرابعة والعشرين. فكان أن نالت الشهادة الجامعية في التمريض بدون أن تضطر لمغادرة البلاد. ولكن بعد إتمامها آخر تدريباتها قررت قضاء الأشهر القليلة المقبلة في جولة لاستكشاف بلدها. فهي بحاجة للراحة، وهل هناك أفضل من التجول في أوستراليا برفقة كلبتها الصغيرة ڤلوفي؟.

وقف الجميع على درجات السلم العريضة أمام الباب والسيارة بالانتظار والمحرك دائر. إنها سيارة صغيرة مريحة أهدتها إياها العائلة في عيد ميلادها الحادي والعشرين وهي بالنسبة لروكسان كنز إذ لم تكن السيارة مخدوشة ولو خدشاً واحداً والناظر إليها يظنها للوهلة الأولى جديدة.

رفع براين تميست حاجبيه:

ـ إذن لن نتوقع رجوعك قريباً؟

فهزت ابنته رأسها:

ـ سأراسلكم طبعاً ولكن رجاء لا تقلقوا عليّ حتى وإن لم تتلقوا مني أخباراً لفترة ما. لأنني أريد الابتعاد كثيراً عن الأماكن المألوفة.

ـ هل أنت جاهزة يا صاحبة السمو؟

وهزت صاحبة السمو «الدوقة الكبيرة» ذنبها، وانتظرت ليفتح الباب لها، ثم نظرت إلى السيارة، وجلست في مكانها فوق الثلج، فتمتمت الجدة:

ـ إنها لا تريد الذهاب معك.

فبدت الحيرة على روكسان:

ـ ما بك ڤلوفي أنت عادة أول من يقفز إلى السيارة؟ ألن ترافقيني؟

هزت الكلبة الصغيرة ذنبها، ونظرت إلى الفتاة بحب، ثم نظرت إلى السيارة ولم تتحرك، فبدأ براين تميست بالضحك، ثم دخل إلى المنزل وهو يقول:

ـ لا وسادة.

فصاحت ساندرة بغيظ:

ـ لا تستطيع النظر بدون وسادة إلى خارج النافذة!.. اعتني بابنتي يا ڤلوفي قدر الإمكان..؟

ووصلت الوسادة التي ما أن وُضعت في السيارة حتى قفزت ڤلوفي «الدوقة الكبيرة» إلى السيارة لتجلس فوقها ناظرة إلى الخارج بعينين براقتين. ولكن لو علمت الكلبة كيف سيغير وجودها مجرى حياة روكسان لترددت كثيراً قبل الصعود إلى السيارة.

ابتسمت ابتسامة أخيرة لأمها وأبيها وجدتها، ثم انطلقت بسيارتها مبتعدة.. وامتنعت ساندرة عن القول «قودي بحذر» إذ لم تعد ابنتها تلك الطفلة التي تحتاج إلى النصائح، فهي سائقة ماهرة وطالما شاهدت نتائج الحوادث بعينها فتعلمت منها الحذر

www.liilas.com

في القيادة.

الطريق مغطاة بالثلج، أو غارقة بالمياه، مظهرها غادر، ولكن روكسان تعرف أنها متى أصبحت في جهة الجبل الأخرى هانت القيادة وستخف حركة السير فتقرر إما السرعة أو التمهل.

لم تقطع في ذلك اليوم مئتي ميل من رحلتها في خط مستقيم. فبعد سنوات من المواعيد الرتيبة المحددة حمدت الله لأنها ستسترخي تاركة الوقت يمر بدون أن تفكر فيه. وهكذا، كلما لمحت طريقاً فرعياً يقود إلى ما هو مثير انعطفت طلباً لاستكشافه. حدث مرة أو مرتين أن لفت انتباهها لوحات سير غريبة فاندفعت تفعل الشيء نفسه.. وكانت تصل أحياناً إلى أماكن مخيبة لأملها.

ولكنها كانت تعود دائماً إلى الطريق الرئيسة، لقد وعدت نفسها بالسير باتجاه الشمس وعليها متابعة السير غرباً.

قضت تلك الليلة في نزل يقع على أطراف بلدة كبيرة، ونامت الكلبة في السيارة التي ركنتها أمام باب غرفتها.

توقفت في بلدة صغيرة في الساعة الرابعة والنصف من بعد ظهر اليوم التالي لتملأ خزانها بالوقود. شارع البلدة الرئيسي واسع تنمو على جانبيه الأشجار على مسافات متقاربة تلقي ظلالاً على الطريق المرصوف. لمعظم المحلات مظلات ضخمة تحميها من الشمس، وفيها بضائع معروضة بشكل مرتب.. قادت روكسان السيارة ببطء على طول الطريق ثم انعطفت إلى طريق أخرى أبعد قليلاً وهناك رأت مركز البريد، وتوقفت الفتاة أمام المكتب المقابل مترددة. فلوحة السير عند المنعطف تشير إلى ثلاثة اتجاهات، وأقرب بلدة لها تبعد أربعين ميلاً وهذا يعني

أنها لن تصل إليها قبل حلول الظلام.. ربما في مكتب البريد من يستطيع إرشادها إلى مكان ما تتناول فيه الطعام، ثم تتحول بعد ذلك بحثاً عن مكان ما إلى جانب الطريق لتنام فيه.

وفيما كانت شاخصة البصر إلى مكتب البريد لفت انتباهها تصرفات رجل بنزل الدرجات الثلاثة. كان يقرأ رسالة بدون أن ينظر أمامه. ولاحظت أن وجهه يحمرّ غضباً ثم رأته يطوي الرسالة بعشوائية ويرميها على الرصيف. وبعد ذلك وضع يديه في جيبي سرواله ووقف يحدق إلى اللاشيء.

ضحكت روكسان فعلى ما يبدو لا تحمل الرسالة أخباراً سارة. وأملت أن يتذكر استعادة الرسالة لئلا يلتقطها أحد يعرفه فيعيدها إلى منزله حيث تراها زوجته، فقد تكون الرسالة من حبيبته مثلاً. وضحكت أكثر وهي تترجل من السيارة بقصد السؤال عن مكان تتناول فيه الطعام. تقدمت امرأة على الرصيف وقد بدت الدهشة عليها ثم أسرعت مبتسمة إلى الأمام لتمسك ذراع روكسان صائحة بلهفة:

ـ لقد جئت.. آه أنا سعيدة جداً! أليكس دعا الله كثيراً حتى تأتي فهو لم يسمع منك رداً على رسالته التي طلب فيها منك المجيء. لقد جئنا اليوم ونحن غير واثقين من قدومك! وأعتقد أنك تتساءلين كيف عرفتك؟ عرفتك من الكلب، لقد قال أليكس يوماً إن لديك كلب «بودل»، وما أن شاهدت ذلك الرأس الجميل في السيارة حتى عرفتك.. هل كانت رحلتك موفقة؟ أنت تعبة بلا شك، وأمامنا خمسون ميلاً على الأقل قبل الوصول إلى المنزل. أليكس.. أين هو؟ قال إنه ذاهب إلى مكتب البريد.. آه.. ها هو.. أليكس! شارلوت هنا! لا أظنه رآك.

وتسمرت روكسان في مكانها تتساءل ماذا يجري، ولماذا حسبتها المرأة فتاة أخرى. وعندما فتحت فمها تهمّ بالاعتذار وبشرح الخطأ الحاصل شاهدت من كان يقرأ الرسالة ينظر إليهما بإمعان.. ثم انحنى ليلتقط الرسالة، وأسرع راكضاً إليهما. فصاحت المرأة بانتصار:

ـ علمت أنها شارلوت.. عرفتها حالما شاهدت الكلب. آه أليكس ألست سعيداً بقدومها؟

نظرت روكسان إلى الرجل بدهشة، ثم تفاقمت دهشتها عندما نظر إليها وكأنه يعرفها نعم المعرفة إذ أمسك بيدها ليضغط عليها بشدة، فضحكت المرأة واستدارت لتلوح للكلبة الصغيرة في السيارة.. فتمتم الشاب بصوت هامس غير مسموع:

ـ لا تخيبي أملها.. أرجوك، أرجوك.

ثم تابع بصوت مرتفع:

ـ لم أكن متأكداً.. لم أكن أعلم ما إذا كنت قادمة اليوم أم لا. لقد قلقت... هذه أمي شارلوت.. السيدة هايدواي.

فقالت الأم:

ـ عندما أكون غير منفعلة أقدم نفسي عادة.. كلبك صغير جميل.. ماذا تسمينه؟

ـ اسمها «الدوقة الكبيرة» و «فلوفي» أو «قالب الحلوى» إنها تجيب عندما يناديها المرء بهذه الأسماء الثلاثة.

شعرت روكسان بالغباء من هذا الاستقبال المذهل. فليس عليها إلا أن تقول ببساطة إن في الأمر خطأ ثم تعتذر وتقود سيارتها مبتعدة. ولكنها شعرت باهتمام غريب، فقد جعلتها حركة الشاب الغاضبة مع الرسالة التي كانت ربما من «شارلوت»

الرافضة على ما يبدو لقاءه أبداً.. واستقبال والدته الحار وحماستها والرجاء في نظرته، تحس برغبة في معرفة المزيد. سمعت السيدة تقول:

ـ إنها سيدة؟ آه يا عزيزتي! لدينا كلاب رعاة عديدة في المنزل وكلها غير مدربة على الأدب، فليتها لا تصاب منها بمكروه.. هل تناولت الشاي يا عزيزتي؟ علينا كذلك أن نستقبل نيل، إنه ولدي الآخر.. أعتقد أنك تعرفين هذا..

وتابعت المرأة ثرثرتها وسط نظرات روكسان التي تملك عادة نظرة ثاقبة للطبيعة البشرية. أدركت أن السيدة هايدواي أكثر من سعيدة بمقابلتها على أساس أنها شارلوت، كانت تضحك وتتحدث وكأنما تحس بالراحة لرؤيتها.. وكانت المرأة في الخمسينات من عمرها، شعرها رمادي، وجهها فقد شبابه. ولكن اللطف ما زال بادياً على قسماتها وفي عينيها وهذا النوع من النساء تحبه روكسان.

نظرت إلى الشاب المدعو أليكس فرأته ما زال يتأملها بنظرة ملؤها التضرع والابتهال. ذكرتها نظرته بنظرة جدتها التي تطل من عينيها عندما تريد أن تخبرها شيئاً دون أن تتكلم. وقطع حبل تفكيرها كلام المرأة:

ـ لقد كنا ننتظر بشوق قدومك إلينا. قد تجدين الحياة هنا موحشة بعد صخب المدينة، ولكن تأكدي أننا سنبذل ما بوسعنا لتسليتك. آه.. ها هو نيل!

لوحت لشاب آخر كان يتقدم منهم بدا أنه الأخ الأكبر. ولكن فيما كان أليكس أشقر الشعر أبيض البشرة كان نيل أسود الشعر متموجاً بطريقة حسدته عليه. أما وجهه فلوحته الشمس.

كان بدنو منهم عاقد الحاجبين ملقياً نظرة إلى الكلبة الواقفة عند النافذة ونظرة إلى الفتاة. فصاحت الأم:

ـ إنها هنا! شارلوت، هذا ابني الأكبر نيل.

ـ وصلت إذن أخيراً.

صوته عميق بحيث تصورته روكسان مغني أوبرا، فأجابته بقظاظة لأنه لم يقدم على مصافحتها حتى:

ـ وهل من سبب يحول دون قدومي؟

قاطعتهما السيدة هايدواي:

ـ هل قلت إنك تحبين الشاي؟ أظن أن علينا تناوله حالاً فالمسافة طويلة أمامنا ولا شك أن شارلوت تعبة. هل قدمت اليوم من المدينة؟

فترددت الفتاة ثم هزت رأسها:

ـ لا.. لقد نمت في نزل على الطريق بالأمس.

ـ المسافة أطول من أن تجتازيها في يوم واحد.. مع أن نيل يظن الأمر سهلاً، وهو يقوم به عادة، إنه سائق ماهر. ولكن سرعته جنونية.. يقع المقهى في الزاوية وهو مكان جيد لتناول الشاي قبل الانطلاق. فقد يحل الظلام قريباً.. هل أرافقك.. لا طبعاً، ما أسخفني! أليكس...

وابتسمت السيدة لابنها الذي فهم الإيماء فدار إلى جهة السيارة الأخرى وفتح الباب. فسارعت فلوفي إلى الجلوس في المقعد الأمامي بطريقتها المتكبرة. تردد أليكس ثم سأل بخنوع:

ـ هل أصعد في الخلف؟

ولم تستطع روكسان منع نفسها من الضحك. وهذا كان حال السيدة هايدواي:

ـ أليست جميلة! إنها مدللة. (قالت السيدة هايدواي)

ـ بالتأكيد، ادفع بالوسادة إلى مقعدي لأنها تخشى أن تجلس عليها فلا تتمكن بدونها من رؤية الخارج.

تحركت السيدة هايدواي مع ابنها الأكبر الطويل نحو سيارة أخرى واقفة على بعد قليل من الطريق، وجلست في مقعدها خلف المقود، وراقبت الأم وابنها يصعدان إلى السيارة الأخرى وهي تفكر. ثم التفتت إلى الرجل الجالس قربها، وقالت بحدة:

ـ والآن.. ربما الآن بإمكانك أن تخبرني من يُفترض بي أن أكون؟

مرر أليكس أصابعه في شعره وأسبل عينيه، وبدا عليه القلق وعدم الراحة..

تمتم: «خطيبتي».

* * *

٢ ـ لو فكّرت...

قالت روكسان بصوت بارد هادىء: «حقاً؟».

ـ آسف. أعرف أنك لا تعرفين شيئاً عن هذا بل أنا لا أعرف اسمك حتى..

فردت بجفاء:

ـ اسمي روكسان تمبست.

ـ آنسة تمبست، يجب أن أشرح لك أموراً عديدة إنما ليس لدي الوقت الكافي الآن. لقد أقدمت على عمل غبي بدون أن أفكر، فربما أنت في الطريق إلى زيارة أصدقائك.

ـ لا.. لست في زيارة أحد.

ـ وأين ستقيمين الليلة هنا؟ أعني هل أنت في زيارة للبلدة؟

ـ لقد بدأت بالأمس رحلة مع فلوفي، لاستكشاف أوستراليا.

فحدق إليها مذهولاً:

ـ لاستكشاف أوستراليا؟ هذه مغامرة! وهذا يعني أنك لم تحددي برنامجاً معيناً.

ـ أبداً..

ـ وليس لديك مكان تبيتين فيه ليلتك؟

كانت هزة رأسها رداً فأردف:

ـ لينك ترافقيننا إلى المنزل متابعة هذا الادعاء، فترة وسأكون شاكراً معروفك إلى الأبد. رجاء رافقينا إلى مزرعة «الأوز البري». هذا اسم مزرعتنا فستجدين الراحة هناك وسنعتني بك. وفي طريقنا إلى المزرعة سأخبرك بكافة التفاصيل وعندها قرري إن كنت تقبلين المساعدة أم ترفضينها.

ـ وإن قبلت فمن يُفترض بي أن أكون؟

ـ شارلوت مايسون لقد خطبتها عندما كنت في سيدني.

وتذكر شيئاً فجأة، فوضع يده في جيبه.

ـ هاك الخاتم، لقد ردته إلي بالبريد المسجل، وقد استلمته منذ قليل.

ـ آه، إنه الخطاب الذي كنت تقرأه والذي رميته على الأرض؟

ـ وهل رأيتني؟

ـ أجل.. كنت أراقبك.. ولكن إن ادعيت أنني خطيبتك ستكون طريقي محفوفة بالخطر؟

ـ إن عائلتي لا تعرف عنها شيئاً سوى اسمها.

ـ هكذا إذن..

أصبح كل شيء أشد غموضاً مع مرور الدقائق. والتوى ثغر روكسان: عليها المبيت الليلة في أي مكان وبما أن منظر الفندق الوحيد الذي شاهدته في البلدة لم يعجبها قررت المبيت الليلة في «الاوز البري». وبدا لها الاسم مغرياً ثم شعرت بعداء غريب غير مبرر لبرودة استقبال نيل الذي كان قادراً بكل تأكيد على استقبالها بحرارة أكبر كونها خطيبة أخيه؟ لقد أحست بالرغبة في

www.liilas.com

الذهاب إلى هناك لمجرد إزعاجه، وأدركت أنها اتخذت قرارها عندما امتنعت عن ذكر الحقيقة. قالت مفكرة:

- إني بذلك أقوم بخداع أمك. وهي تبدو لي في غاية اللطف بحيث من المشين خداعها.

قال بيوس:

- إنها لطيفة فعلاً، وأنا أكره ما أفعله ولكن عندما أشرح لك فستفهمين وسواء أكنت شارلوت أم سواها فستكون سعيدة بصحبتك فترة. فلا امرأة تتبادل معها الأحاديث على مسافة خمسة عشر ميلاً.

ترددت روكسان ثم شغلت محرك السيارة، وانطلقت بها متمتمة:

- ستظل روح المغامرة التي في نفسي تدفعني.

- هل ستقبلين؟

وبدت اللهفة في صوته فسألته ساخرة:

- ستبدو غبياً إن اعترفت أنك أخطأت واعتقدتني شارلوت..

على كل الأحوال، لديها فلوفي، والمسدس والسيارة وإذا لم يعجبها المكان هناك، أو وجدت الأمور غير مريحة فستغادر تاركة أليكس هايداوي يفسر الأمور لعائلته.

سمعته يقطع أفكارها بقوله بلهفة:

- لا أدري كيف أشكرك. وراء هذا المنعطف آنسة تمبست.

- الأفضل أن تناديني روكسان فأنا لا أطيق ذلك الاسم أبداً وإن استغربوا الأمر فقل لهم إنني أمقت اسم شارلوت.

- وهل.. هل تعترضين على وضع هذا.. أرجوك.. فإذا

لم تضعيه أضعته..

وناولها الخاتم. فأخذته منه ثم أمسكت المقود بيد واحدة ودسته في أصبعها فإذا هو يناسبها وعندها صغرت إعجاباً:

- لقد كلفك ثروة بدون شك.

- هذا صحيح.. وهو جزء من المشكلة.. ها قد وصلنا إلى المقهى.

توقفت روكسان أمام المنعطف ثانية، وترجلت من السيارة. وكان نيل هايداواي وأمه بالانتظار. فشعرت روكسان مرة أخرى بسخرية باردة في عينيه اللتين نظرتا إلى سيارتها بإمعان ثم إلى الفتاة بتساؤل وإلى أخيه بعتاب.

سأل أخاه: «أرز ودجاج يا نيل؟»

فهز نيل رأسه، ثم استدار وسار إلى الأمام، فاعتلت جبين الفتاة تقطيبة. ما هذه الفظاظة في هذا الرجل؟ يتصرف بطريقة غير مؤدبة أبداً.

التفتت إلى خطيبها المزعوم لتقول له على مسمع من أخيه:

- وأنا أحب أيضاً الأرز والدجاج، وكلبتي «الدوقة» تحب الدجاج من دون عظام.

فقال لها أليكس: «سأجلب لها بعضه».

تولت السيدة هايداواي معظم الحديث أثناء انتظارهم الطعام وجلس نيل مسنداً ظهره إلى الوراء يستمع، أما اليكس فقعد مسنداً ذقنه إلى يده يتأمل اللوحات الموجودة على الجدار وقد بدا تصرفه غريباً بالنسبة لشاب يستقبل خطيبته بعد فراق طويل. أثناء وجبة الطعام علمت أن مساحة المزرعة تقدر بعشرين ألف فدان، وان معظم ما يربى هناك هو الخراف المعرضة للخطر من

www.liilas.com

الحيوانات البرية التي يتزايد عددها. وقال نيل:

- إنها حيوانات مؤذية.

فقالت روكسان بدون كياسة أو أدب:

- ولماذا؟ أنا أحب الحيوانات البرية.

فصاح بها بحدة:

- وهل شاهدت مثلها في حياتك؟

- في حديقة الحيوان فقط.

- أنت إذن لا تعرفين ماذا تأكل!

- وهل لديكم طائر الآموس، القريب من النعامة؟

- أجل لدينا منها هل شاهدته في حديقة الحيوان أيضاً؟

فهزت رأسها.. يا له من رجل فظ جلف!

قررت وهما على الطريق الترابي الذي قاد نيل سيارته عليه بسرعة تاركاً وراءه الغبار لتلحق به روكسان، أنها لا تعرف الطريق وأن عليها أن تبطىء المسير حفاظاً على سيارتها.. فأبطأت السير، ضاربة عرض الحائط بما سيظنه نيل بها وباليكس.

سألت اليكس بهدوء:

- حسناً؟ ما الأمر؟

- أوه.. أجل! لا أدري ما سيكون ظنك بي.. أتمنى ألا تسيئي الحكم عليّ.

- لن أسيء الحكم بدون معرفة السبب.

- حسناً، القصة لا تضعني في مركز جيد. أعتقد بأنني من النوع الذي يوصف عادة بالابن الضال في العائلة. فإما أن يلازمني النحس في كل ما أفعل، وإما أن يلاحقني الشيطان أكثر

من نيل..

- أشك في هذا!

قالت كلماتها تلك بتهور، فنظر إليها بسرعة:

- ألم يعجبك.. صحيح؟

- لم تعجبني بالتأكيد طريقته في تحية من يفترض بها أن تكون خطيبة أخيه.

فابتسم أليكس، وتابع:

- لقد كره نيل شارلوت منذ ذكرت اسمها قبل أسابيع. ولم يذكر السبب، وعندما سألته، نظر إلي بسخرية وقال إنني كبير لأعرف ما أفعله بمستقبلي. بدأت المشكلة في الكلية، فقد اختلطت مع جماعة فاسدة، وأخذت أنفق المال بلا حساب فكان أن أوقعت نفسي بمشاكل جمة فاضطر نيل ووالدتي أن يخلصاني منها مسدّداً ديوني، وما إلى ذلك. وفي ذاك الوقت لم أكن أعمل في الأملاك وهذا ما سبب بعض الاحتكاك بيننا، فنصف تلك الأملاك لي لأن أبي عندما مات تركها مناصفة بيني وبين أخي شرط أن تعيش فيها أمي طوال حياتها، وأعترف أنني تركت له إدارة كل شيء ولم أهتم بشيء ما دمت أنال حصتي من المال.

بدا غير مستريح البال فلم تعلق روكسان.. وبعد صمت قصير تابع:

- أنفقت المال بالسرعة التي كنت أحصل عليه إذ كنت أنفقه على السباق، والرهانات السخيفة، وأخيراً على شارلوت.

لاحظ أنها انتفضت ثم رأى الهواء يتلاعب بشعرها الأحمر الأصهب فقال:

- إنها لا تشبهك أبداً.

- كيف؟

بدت الابتسامة على وجهه.

- تبدين رزينة وعاقلة..

قاطعته ضحكة قصيرة.. كيف تكون رزينة من تزج نفسها في موقف مع شخص لا تعرفه بعد أقل من ثلاث دقائق من لقائها به؟.. فنظر إليها وقال بحيرة:

- إن كان كلامي يسليك..

- آسفة يا اليكس، لم أضحك عليك بل على نفسي، هل تعتقد أنني عاقلة ورزينة بعدما سمحت لك بإقناعي بالإقدام على هذا الادعاء؟

لوحت بأصبعها الذي يقع فيه الخاتم، ففهم مقصدها حالاً.

قال معترفاً: «أنت على حق ولكنك رغم ذلك لا تشبهين شارلوت فهي جميلة، أنيقة وباردة وجشعة وغير عاقلة».

- شكراً..

إذن هي ليست جميلة، أو أنيقة، أو باردة، ولكنها ليست غير عاقلة أو جشعة!

سألته: «ومع ذلك تحبها؟»

- لم أستطع الحؤول دون ذلك.. لقد قالت إنها تريد الزواج بي، ولهذا خطبتها. لقد أمضينا وقتاً رائعاً، كنا فيه نثابر على الإنفاق بإسراف ولكن نضب مالي أخيراً وعدت إلى المنزل. فسعدت والدتي لمعرفتها أنني سأستقر أخيراً... لقد أثارها الأمر، فنيل، كما ترين، بلغ الثلاثين ولم يظهر اهتماماً بالجنس اللطيف لأنه مشغول دائماً! أثارتها فكرة تزويج أحد أبنائها.

وهكذا كتبت رسالة لشارلوت أطلب فيها منها الحضور لأن أمي وأخي يريدان رؤيتها ولأن هذا المنزل سيكون يوماً منزلها. وكان ما دفعني إلى كتابة تلك الرسالة إنذار نيل الذي قال إن عليّ العمل إن أردت في المستقبل الحصول على حصتي.

- هذا أمر عادل.

- أجل.. إنه عادل. صدقي أني وجدت الفكرة ممتازة. ربما تعبت من حياة المدينة ورغبت فعلاً في الاستقرار. ولكن لم تفكر شارلوت بهذه الطريقة، فقد قالت في رسالتها التي استلمتها اليوم إنها لا تفكر أبداً في العيش في أرض الخيال ثم قالت إن عليّ إن كنت أريدها أن أعيش في سيدني ثم حلّت الخطوبة وأرسلت الخاتم بانتظار انخاذي القرار.

بدت عليها الدهشة وهي تسمع هذه الأخبار من فتاة مرتزقة كشارلوت تعيد له هذا الخاتم الثمين، أبدت له رأيها فاكفهر وجهه:

- تعلم أنني لم أدفع ثمنه وما زال لدي فواتير لم تسدّد حتى الآن.

تابعت روكسان القيادة بصمت. كانت الشمس قد أغربت، فأضاءت أنوار السيارة الجانبية. بدا لها الريف هادئاً ومسالماً. وأخذت روكسان تنظر إلى ما حولها تتفرج باهتمام أما أليكس فغرق في أفكاره. كان الريف على مد النظر، يتخلله بعض الغابات، والسياجات والخراف أيضاً رغم هبوط الظلام.

وسألته فجأة:

- وإلى أي مدى سيكون دوري في كل هذا؟

فأجفل وعض على شفته:

www.liilas.com

- ربما ساء ظنك بي بعدما أخبرتك عن تصرفاتي، ولكنني مولع بوالدتي جداً. وعندما رأيتك تقفين معها قرب السيارة، ورأس الكلبة بينكما، فلشارلوت كلبة مماثلة سوداء، أدركت أن الغلطة أتت بشكل طبيعي وكان أن قفزت الفكرة المجنونة إلى رأسي وفكرت في أن تحلي مكان شارلوت فترة حتى تبقى أمي سعيدة. ثم هناك نيل فلو اقتنع أنني أريد حقاً مساعدته فستتحسن الأمور بالنسبة لنا جميعاً، فطالما تخاصمنا بشدة في الماضي وهذا ما كان يكدّر والدتي. وإن وجداني الآن مع خطيبتي وعلما أنني سأبذل جهدي فسيسعد جميع أفراد المنزل.

فردت روكسان:

- من حسن حظك أن لدي روح المغامرة، ولكن كان يمكن أن أكون متزوجة من رجل بارز.

فضحك:

- هذا ممكن بالطبع، ولكنك غير متزوجة. والآن وقد ألزمت نفسك بمرافقتي، فهل ستساعدينني؟ لا أريد منك إلا أن تكوني لطيفة مع أمي وأخي، وأن تدفعيني إلى الأمام عندما تلوح عليّ بوادر التراجع، وأن تساعديني على تأسيس مشاعر ودية في المنزل..

فاعترضت:

- ولكن.. لن أستطيع الاستمرار في الارتباط بك إلى الأبد أليكس، فلديّ عائلتي كما أشعر برغبة عارمة كبرى في استكشاف بلدي.

- سنضطر عندها إلى حلّ رباطنا مدعين أننا لم نتفق.

- صحيح.. إذ نستطيع الادعاء أن طباعنا لا تتحمل ضغوط

الحياة الزوجية وعندها أذهب.

فقال بخجل ورجاء:

- إنما ليس بسرعة، أمهليني وقتاً لأثبت اصطلاح أمري ولأسدّد ما علي تسديده من فواتير.

- وكم سيدوم ذلك؟

مرر أليكس أصابعه في شعره وتمتم كاذباً:

- بضعة أسابيع على الأقل.

وتابعت روكسان قيادة السيارة بصمت وقد وجدت أنها أمام خيارين الأول يطلب منها إيقاف السيارة ورميه إلى القفر الخالي والثاني يحثها على إكمال الطريق للوصول إلى الأوزالبري الذي قد تمكث فيه أسابيع.

ضحكت قائلة: «حسناً.. سأقبل لعب هذا الدور».

وبدت الستين ميلاً التالية طويلة مقفرة، فلم تمرّ ببلدات أو بقرى، وامتد الطريق إلى ما لا نهاية.

هبطت السيارة في حفرة واصطدمت بالأرض، فذعرت وقالت:

- ما هذا؟ هل اصطدمنا بشيء؟

- إنها حفرة في عرض الطريق، وهي الأخيرة قبل وصولنا إلى المنزل.. لقد وعدت نيل أن أصلحها.

- متى؟

- متى وعدته؟.. آه منذ أسبوع تقريباً.

فتمتمت:

- يبدو لي أنه يحق لأخيك الانزعاج منك لقطعك وعوداً لا تفي بها.. وإن كان علي أن أدفعك للوفاء بما تعد فأنا أشفق

www.liilas.com

عليك منذ الآن أيها الفتى!

فضحك أليكس ضحكة حقيقية للمرة الأولى:

- أعتقد صادقاً أنني سأستمتع بوجودك معنا.

- لا تكن واثقاً من هذا كثيراً، فقد أكون عنيدة وقاسية.

التفت إليها متفرساً في الظلام:

- من أنت يا روكسان؟ أعني هل كنت تعملين في محل أم في مكتب؟ أم كنت تلازمين المنزل؟

- أنا في الواقع ممرضة متخصصة وقد نلت درجات جامعية عالية وتفوقت.

فصفّر دهشاً:

- أرى أنك ناجحة وكفؤة، ولكن إياك أن تخبري نيل لأنه يعلم أنني لست ممن يتعرف إلى فتاة ذكية ونشيطة.

- من الطبيعي أن يتوقع فتاة جميلة أنيقة مبذرة، ولكنه فوجىء بي.. مسكين يا نيل!.. لا.. لن نخبره!

- بالتأكيد، فهذا قد يعقد الأمور.. انعطفي يميناً. هذه هي الطريق.

- ميلين آخرين فقط.

- الآن أنت في أرضنا وهي منطقة واسعة منبسطة.. وإن نعمت بالمطر الوفير تصبح أرضاً خصبة، ولكن المطر قليل هنا للأسف.

وانحدرت الطريق لتمر فوق «عبّارة» يجري تحتها الماء. ثم انعطفت إلى اليمين ثانية فاستقبلت نافذة مضاءة.. فبدت الدهشة على روكسان:

- ألديكم كهرباء هنا؟

- طبعاً.. من مولدنا الخاص.

- لم أزر الريف قط لذا قد تظنني جاهلة.

- لا بأس في هذا..

- إذن ستسامحونني على الأخطاء التي أرتكبها؟

وهز رأسه موافقاً والسيارة تقف خارج بوابة بيضاء. كانت السيدة هايدواي واقفة في البوابة، فأمسكت بذراع روكسان بعدما تأكدت من أن أليكس يهتم بالحقائب، وقادتها عبر ممر نظيف إلى باب مفتوح.. ولحقت «فلوفي» بسيدتها. إنه مكان غريب تخاف أن تضيع فيه. وصلوا إلى المنزل قبل أن يلاحظ نيل الكلبة فقال بحزم وقد مد قدمه إلى الأمام ليعيق تقدمها:

- نحن لا نسمح للكلاب بدخول المنزل.

فرفعت روكسان رأسها إليه بكبرياء:

- إذا لم تدخل فلوفي فلن أدخل أنا!

فتدخلت السيدة هايدواي:

- بالطبع ستدخل.. حقاً يا نيل! كيف تترك حيواناً صغيراً بهذا الحجم في الخارج طوال الليل! إنها لطيفة ومطيعة، وستكسر لها قلبها الصغير إن فصلتها عن شارلوت.. هي ليست ككلاب الرعاة التي تملكها.

رفعت الكلبة الصغيرة رأسها، ثم أكملت طريقها نحو الغرفة حيث أحست أن فيها الدفء والطعام.

أقبل أليكس يبتسم لأخيه الذي لحق بالمرأتين وقال معلقاً:

- غريب كيف يسارع الجميع إلى المطبخ.. لقد بدأ الطقس يبرد.. أليس كذلك؟

ولم يرد نيل، بل ارتدت على عقبيه ودخل إلى غرفة

www.liilas.com

الجلوس حيث ركع أمام المدفأة ليشعل الحطب. وأخذ يفكر..
إذن هذه هي خطيبة أليكس وهي مختلفة عما تصورها، ولكن الانطباع الأول لا يكون صحيحاً عادة كما أن في طباعها ناراً متأججة ظهرت له في مناسبتين خلال الساعتين المنصرمتين..
ربما هذا أمر متوقع ممن يمتلكن شعرها الأحمر. ولكن إن ظنت أنها ستتابع حياتها كما كانت في المدينة فقد أخطأت. لقد عمل جاهداً سنوات وسنوات وأدار هذه الأملاك وحده وكان فيها السيد المطلق.

لقد حصلت هذه الفتاة من خلال أخيه على جزء كبير من تعبه وجهده وها هي الآن بعيداً عن أضواء المدينة وسيجعلها تدفع له بعضاً من خسارته بطريقة ما.

واختصاراً سيجبرها على العمل!

* * *

٣ ـ حان وقت العمل

لم يكن هناك مجال لإنكار غبطة السيدة هايدواي بوجود خطيبة ابنها العتيدة معها. وقد اصطحبت روكسان إلى المطبخ حيث سمعت استحسان الفتاة وكأنه موسيقى لأذنيها، فلقد كان مطبخاً حديثاً، فيه أحدث ما يمكن رؤيته في المدينة من تجهيزات. وكان الفرن الكبير يبعث الدفء في المكان، فتقدمت روكسان لتقف قربه.

ـ لم أكن أعلم أن الطقس بارد هكذا في الليل هنا.

فأجابتها المرأة الأخرى وهي تضع غلاية الماء فوق النار:

ـ يغطي الصقيع المكان أحياناً، ولكنه يزول حالما تشرق الشمس. وفي الصيف طبعاً تشتد الحرارة.

ودخل أليكس إلى المطبخ مبتسماً للمرأتين:

ـ أتشعرين بالبرد روكسان؟

فالتفتت إليه أمه باستغراب:

ـ روكسان؟!!

فسارعت الفتاة لتقول:

ـ إنه اسم أستخدمه عوضاً عن اسم شارلوت الذي أمقته. ألا ترين أن اسم شارلوت لا يناسبني؟

www.liilas.com

فضحكت المرأة الأخرى وأجابت:

- صحيح هو لا يناسبك. وأظنني سأحب اسم روكسان كثيراً، يا عزيزتي أنت ترتجفين!

- كان عليك مشاهدتي صباح أمس والسيارة تشق الطريق في الجبال بين الثلوج. ولكنها تابعت المسير ولم يطل بنا الوقت حتى وصلت إلى الطقس الدافىء.

صدمتها فجأة فكرة: ربما يعتقد نيل أن السيارة هي إحدى هبات أخيه. لا تستغرب الآن استقباله ذاك. وسمعت السيدة تقول:

- لقد قلق أليكس عليك. لم تتح لي فرصة تهنئتك يا روكسان فهلا أريتني خاتم الخطوبة.

لمّا مدت روكسان يدها ببطء شهقت الأم إعجاباً بالخاتم الثمين.. في هذه اللحظة دخل نيل الذي شاهد ما كانت أمه تنظر إليه بإعجاب، فقد كانت فاتورته في درج مكتبه.

نظرت إليه أمه: «أليس جميلاً يا نيل؟»

تمتم وهو ينظر إلى ما تحويه اليد التي تمسك بها أمه:

- هذا ما يجب أن يكون عليه!

وفكّر بدهشة: إنها يد قديرة. أظافرها مقلمة وخالية من الطلاء.

غطت روكسان في نوم عميق حتى الصباح التالي.. ولم تستيقظ إلا على نباح الكلبة الجائعة على الأرض قربها. هبت من منامها فوجدت السيدة هايدواي تطل من الباب.

- أنا آسفة.. لم أقصد إيقاظك.

فسألتها وهي تجلس في الفراش:

- كم الساعة الآن؟ هل خالفت نظام المنزل؟

- بالطبع لا! كنت تعبة ليلة أمس. لقد قدت سيارتك من مسافة بعيدة، وأعلم أن الطقس يختلف عن طقس المدينة، لذلك تركتك لتستريحي! لقد خرج الأولاد. ذهب أليكس لإصلاح الحفرة على الطريق قائلاً إنه وعد بإصلاحها ولن يستطيع انتظارك حتى تستيقظي ولكنكما ستشاهدان بعضكما بعضاً كثيراً.. لا تخافي!

وجلست السيدة على حافة السرير، وأخذت تمعن النظر بوجهها بدون حرج، ثم قالت:

- أتعلمين.. أرجو ألا تنزعجي من قولي، ولكنك مختلفة عما تصورتك. لم يكن لدى أليكس صورة لك، ولكنه قال إنك جميلة جداً.

وضحكت روكسان وهي تتمدد:

- وأنا لست جميلة، الجمال يكون عادة في عيني المحب.. يجب أن أغادر السرير، فلا أتأخر عادة في النوم. إنها العاشرة.

- لا يهم نحن نستيقظ باكراً.. يحلب نيل الأبقار قبل خروجه. وأحضّر أنا وجبة طعام لائقة، فهو وأليكس لا يعودان قبل الغداء. وهذا يعني أنه أمامنا وقت طويل ومريح لتبادل أطراف الحديث! أنت جائعة بلا شك لذا سأعدّ لك فطورك.

استنكرت روكسان.

- أرفض ذلك! لم آت إلى المزرعة لتقومي بخدمتي. سأستحم ثم أكون معك بعد لحظات!

استحمت على عجل وارتدت ثيابها على عجل ومع ذلك وجدت السيدة هايدواي مشغولة في المطبخ. تناولت السيدة

www.liilas.com

هايدواي المزيد من القهوة أما روكسان فشرعت تتناول فطورها. تحدثتا مدة طويلة ثم قامتا بتحضير الغذاء وبعد ذلك رتبت روكسان غرفتها، وفتحت حقائبها، وأخذت تتجول في المنزل، الذي وجدته ضخماً أكثر مما تصورته والغريب أن يكون الأثاث من الطراز الحديث. للمنزل شرفتان واسعتان على الجانبين وشرفة إلى الخلف هي مكان واسع لإقامة الحفلات.

ومن هناك انتقلتا إلى الحديقة تحت أشعة الشمس. كانت الحديقة كبيرة، يحدها سياج لمنع الخراف والحيوانات الأخرى من الدخول. وكانت غنية بالأشجار الضخمة والشجيرات الشائكة التي يفيء إليها المرء في الصيف. ولكن ما لفت نظرها كثيراً حديقة الخضار، فقد كانت أرتب وأنظف حديقة رأتها وقد عبّرت عن رأيها هذا عندما قدمت السيدة لها البستاني.

قالت لها السيدة هايدواي وهما تعودان إلى البيت:

ـ ربما نستطيع التجول في الحقول بعد الظهر. إذا أحببت ذلك طبعاً.

ـ بالطبع أحبه. فلم أشاهد قط الحقول، وأنا أجدها مثيرة للاهتمام. كما أريد معرفة المزيد عن تربية الخراف والأرض، والحيوانات الأخرى. ربما يصحبنا أليكس بعد الظهر.

ـ سأضع الإبريق على النار إذ سيعود الولدان قريباً.. لا يا عزيزتي، لا يمكنك مساعدتي بشيء، فلقد حضّر الطعام ولم يبق سوى الشاي.

وتركت روكسان والكلبة فوق المرجة. وانحنت الفتاة تلاعب كلبتها. وفيما كانت تطاردها بين الأشجار وصل نيل الذي تقدم بصمت وهو يسمع صوت أمه في المطبخ. فقطب

جبينه عندما شاهد الفتاة تلاعب الكلبة ضاحكة، ثم شاهدت الرجل فوقفت متلعثمة تشعر بالغباء وابتسمت له:

ـ كنت ألاعبها فقط.. فهي تحب اللهو من وقت لآخر.

فرد عليها ببرود، وهو يسمع أمه تحرك الطناجر في المطبخ:

ـ حقاً؟.. إنها طريقة رائعة لقضاء الصباح بدون شك.

وارتد على عقبيه ليدخل إلى المنزل، فالتفتت روكسان إلى جهة البوابة وهناك شاهدت أليكس الذي ما أن رآها حتى لوّح لها فتحت له وانتظرت. فصاح مسروراً:

ـ لقد أصلحت الحفرة في الطريق. كيف حالك هذا الصباح روكسان؟ هل نمت جيداً، وهل ستحبين الإقامة هنا؟

هزت رأسها إيجاباً ثم أمعنت فيه النظر، فبدا لها راضياً عن نفسه أكثر مما كان في اليوم السابق.. قالت له وهما يسيران جنباً إلى جنب:

ـ نود أمك لو ترافقنا في جولة على الحقول بعد الظهر، فأنا نود رؤيتها.

فردد ببطء وتفكير:

ـ يا إلهي..! لقد وعدت نيل أن ألقي نظرة على الخراف في الناحية الغربية! لا بأس.. سأذهب إلى هناك غداً.

ـ ما دام الأمر كذلك فاذهب لرؤية الخراف بعد الظهر على أن نصطحبنا فيما بعد.

ـ ربما يرافقكما نيل.. فهو يحب اصطحاب أمي في نزهة.

ولكن كان لدى نيل أفكار أخرى عن تسلية روكسان بعد الظهر، فلم يعجبه بقاء تلك الفتاة نائمة فيما أمه تنظف المنزل

www.liilas.com

وتطهو الطعام.

عندما ذكر له الموضوع هز رأسه وقال:

ـ هناك متسع من الوقت لتشاهد شارلوت الأملاك.. وأقترح عليها المساعدة في تنظيف الخيول.

وبدا على أليكس الذهول: «ولكن».

فقاطعه نيل زاجراً:

ـ ستجري مباريات هذا الأسبوع، فهل نسيت؟ ويجب تنظيف الجياد.. وإن كانت خطيبتك تريد النجاح في حياة الريف، فعليها أن تتعلم القيام بحصتها من العمل هنا.

احمرَّ وجه السيدة هايدواي، وأطرقت تنظر إلى طبقها.. ولكن تعابير روكسان لم تتغير بل تابعت تقشير البرتقالة.. ولم تجرؤ على رفع نظرها، فلو فعلت لشاهد نيل ضحكتها وهذا ما لن يحبه. قالت الأم محتجة:

ـ ربما لا تعرف روكسان شيئاً عن تنظيف الخيول.

فردت الفتاة بهدوء:

ـ بإمكاني أن أتعلم.

ووضعت قطعة من البرتقال في فمها وابتسمت لأليكس وتابعت:

ـ لهذا جئت إلى هنا، أليس كذلك؟ لأعيش حياة الريف.

فرد نيل موافقاً:

ـ بالضبط. وتنظيف الخيول جزء من هذه الحياة. يمكننا الذهاب حالما تنتهين من مساعدة أمي في تنظيف المطبخ.

فردت بخضوع:

ـ حاضر يا نيل.

وفي هذه المرة شاهد الضحك جلياً في عينيها.. فقال لنفسه: سأعلمها! وستتعلم! وستنسى العبث وقضاء الوقت في اللهو كما ستنسى اللعب مع كلبتها. وسيكون هناك حيوانات أخرى بانتظارها! هبّ عن المائدة فجأة وغادر. فنظرت أمه إليه ثم ردت بصرها برجاء نحو روكسان:

ـ أرجو ألا تغضبي.. أنا أساعده عادة في الجياد ويجب عليّ هذا، عندما يكون أليكس مسافراً.. إنه يحب الخيل والسباق، وجياده من النوع الأصيل وهو فخور بها. ولكن يجب العناية بها.. كان عليك يا أليكس أن تساعد أنت لا روكسان.

فقالت روكسان:

ـ لقد وعد أليكس أخاه أن يتفقد الخراف في الناحية الغربية، وعليه أن يفي بوعده أما أنا فسأساعد نيل بالجياد عن طيب خاطر.

سألها أليكس:

ـ وهل تعرفين شيئاً عنها؟

فردت بحبور: «لا أعرف شيئاً عنها».

وحاول أليكس تصور شارلوت الحقيقية تساعد نيل في تنظيف الخيول بثيابها الضيقة الأنيقة، وكاد يختنق بالضحك وهو يرتشف القهوة.

ولكن روكسان، نوع آخر من الفتيات، فهي تصغي إلى ما يقوله نيل وتنفذه سواء أكان هذا بشكل صحيح أم خاطىء.

قامت روكسان بتنظيف المطبخ ليس بسبب الأمر الذي تلقته بل بسبب رغبتها في ذلك. وعندما أنهت العمل بدلت ملابسها وارتدت سروالاً من الجينز وكنزة ثم انطلقت إلى حيث شاهدت

www.liilas.com

نيل مع الجياد. راقبتها السيدة هايدواي منتهدة.

سألها نيل فجأة بعد وصولها إليه:

ـ هل تجيدين امتطاء الخيل؟

فهزت رأسها نفياً.

ـ آسفة، فلم تكن الفروسية بين برنامج تعليمي.

فتمتم: «لا يدهشني ذلك. بإمكانك تنظيف «ريد ميرمايد» بالفرشاة، إنها تلك الفرس الصهباء».

رأت حيث أشار جوادين أصهبين فراقبها تقترب منهما، منتظراً أن تسأله أيهما يقصد بقوله، ولكن روكسان مدت يدها نحو أحدهما وقالت بعذوبة:

ـ تعالي يا فتاتي.. تعالي..

مدت الفرس رأسها ثم تراجعت قليلاً.. راقبها نيل وهي تلحق بالفتاة بلا وجل. كانت روكسان تستخدم مع الفرس أسلوبها مع الأطفال مستخدمة الصوت الناعم المغري، الهدوء والتصميم، والإرادة بالمساعدة. وكما كان الأطفال يتجاوبون تجاوبت الفرس التي طأطأت رأسها لتسمح لليد اللطيفة بمسح أنفها فعنقها.

سألت: «من أين أبدأ؟»

فتقدم نيل منها وراح يشرح لها بدقة فن تنظيف الخيل بالفرشاة، وبدأت بتنفيذ تعليماته. فاستمتعت الفرس بالتدليك ووقفت جامدة، وجلدها البني الأحمر يلمع تحت أشعة الشمس.. سألته روكسان بدون أن تلتفت إليه:

ـ هل تشارك كثيراً في السباقات؟

ـ أجل.

ـ وأليكس؟

ـ يجب أن تعرفي ما يحبه خطيبك وما لا يحبه.

ـ لم يخبرني شيئاً عن حبه للخيل.

ـ حسناً.. إنه يحب الخيل.. وهذه الفرس التي تنظفين هي فرسه.

ـ أليست فرسك؟

ـ أحب تنظيف جيادي بشكل جيد.

فتمتمت لنفسها غاضبة: وهذا ما يوقفك في مكانك الصحيح روكسان تمبست! توقفت للحظات تحدق إلى الخاتم الألماسي وهو يلمع تحت ضوء الشمس. ولكن صوتاً بارداً تناهى إليها من الخلف فأجفلها:

ـ لم تنهي حتى الآن عملك.

ـ لا.. أعرف. كنت أتأمل جمال خاتم خطوبتي.

راحت أثناء التنظيف تغني بصوت منخفض لنفسها وتفكر: هذه هي الحياة.. أشعة الشمس والريف المنبسط.. وجلد هذه الفرس الحمراء. إن هذه الحياة هي بالضبط ما تحتاجه. ليت نيل يتركها لتستمتع بما يحيط بها!

عاد أليكس من جولته في الجانب الغربي قبل أن تنهي تنظيف الجواد الثالث فبدا منزعجاً لأنها ما تزال مع نيل في الإسطبل وبدأ بالاحتجاج:

ـ كان يمكنك الانتهاء قبل هذا الوقت، فطالما أنهيت هذا العمل في وقت أقصر وأنت وحدك يا نيل.

فقالت روكسان:

ـ ولكنني بطيئة قليلاً إذ لم يسبق أن نظفت جياداً. ولكن

www.liilas.com

انظر إليها ألا تبدو في غاية الجمال؟ ليتك تشارك في السباق في نهاية الأسبوع يا أليكس.. أحب رؤيتك مشاركاً.

- سأشترك في المباراة، فأنا ونيل في الفريق نفسه، وستقابلين الكثير من الناس روكسان. إنها مناسبة سعيدة لنا جميعاً وسيقام خلالها حفلة راقصة في المساء.

نظر أليكس إلى وجهها وقال:

- انشغلت والدتي بالاتصال هاتفياً، وقد أجرت الاتصالات مع جميع المعارف لتزف لهم الخبر والنتيجة أننا سنستقبل عدداً كبيراً من الضيوف.

فسأله نيل بغيظ:

- ولماذا هذا كله حباً بالله؟

- للقاء روكسان.

في طريق العودة إلى المنزل همس أليكس إلى روكسان:

- لا تفسدي عليها سعادتها.. لقد قامت أثناء غيابك مع نيل بتحضير الحلوى والبسكويت.. لماذا دفعك للقيام بهذا العمل لا أدري؟.. ستقام الليلة حفلة خطوبة.. كما تسميها.

فأجابته بصوت منخفض:

- أليكس.. لا يعجبني هذا كله أحس أنني مخادعة رهيبة.

فتوسل إليها:

- لا تتراجعي الآن أرجوك خاصة وهي الآن مغتبطة بوجودك معها.. ونيل حائر كذلك، يتساءل إلى متى سأحافظ على وعودي وأقوم بكل الأعمال التي يطلبها مني. أرجوك استمري حتى يقتنع أنني جاد، وربما عندها أكون قد تغلبت على خيبة أملي وقررت الاستقرار.

- حسناً...

قطعت كلامها لأنها رأت السيدة هايدواي تبتسم لهما من نافذة المطبخ.

راقبها نيل طوال السهرة فوجدها تنسجم بسهولة مع الضيوف.. لم تخجل مرة أو عبست أخرى بل شاركت بالحديث بسهولة وردت عل أسئلة عديدة تتعلق بالمكان الذي التقت به أليكس وبعلاقتها بأخيه ولكنه لاحظ أنها لم تكشف شيئاً عن نفسها، لم يعرف هو أو أي من المدعوين ما إذا كان لها عائلة، أو عمل، أما قصة العارضة التي سمعها فلم يصدقها لأنها لا تبدو من هذا النوع من الفتيات.

أما السيدة هايدواي فتصرفت على سجيتها المرحة وكانت فخورة وهي تعرف الجميع إلى خطيبة ابنها. ولكنها تمنت لو يظهر أليكس عاطفة تجاه روكسان فكلما نظرت إليه وجدته يتحدث إلى شخص ما وعندما تحلقوا حول مائدة العشاء أبدى اهتماماً بالفتاة الجالسة قربه وللأسف لم تكن روكسان هي هذه الفتاة.

أن تكون الفتاة مخطوبة أمر لا بأس به. هذا ما فكرت فيه روكسان وهي مستلقية في الفراش بعد منتصف الليل، ولكن الأمر يسوء عندما يسألونها عما إذا كانت ستعيش في مزرعة «الاوز البري» بعد زواجها، وقد أرفقت الفتاة السائلة هذا السؤال بسؤال آخر تضمن استفساراً عن حبها لأليكس.

أخذت تحدث كلبتها: للأمر حسناته وسيئاته.. ولعل أعظم سيئاته أن تكون الفتاة محط للأنظار وعرضة للتجاهل وللتآمر من أخ أليكس الجلف الفظ..

www.liilas.com

وحدقت إلى كتلتها المتدثرة قبل أن تضيء النور وأردفت:
إنه كتلة من حجر، ألا تظنين هذا؟ إنه كالإله الإغريقي «ساتورن».. عمت مساء يا عزيزتي فلوفي.

* * *

٤ ـ راعية الغنم

بعد يومين وفيما كانت روكسان تدير عجلة قيادة اللاندروفر أدركت أن اثنين وعشرين فداناً تغطي أرضاً واسعة. كانت الخراف مراوغة تختبىء وراء الشجيرات، ثم تركض في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي تنوي أن تقودها إليه. قالت لرفيقها في السيارة:

ـ هذا عمل جديد بالنسبة لي بكل تأكيد.. جمع الخراف بالسيارة... لقد تصورت دائماً أنه عمل فارس يعتمر قبعة واسعة ويرتدي قميصاً مشبعاً بالتراب وسروالاً جلدياً وينتعل حذاءً طويلاً ويحمل مهماراً يصفّر بيد ويمتطي جواداً.

وتنهدت وهي تدير المقود بكل قوتها لتجنب صخرة على الطريق هذه المرة، ثم تابعت:

ـ وطالما تصورت صاحب المزرعة رجلاً لطيفاً دمث الأخلاق، يعامل ضيوفه برقة ودلال. ولم أتصوره قط يصيح بهم: «هاي.. ماذا تظن نفسك فاعلاً؟» كما يفعل صاحبنا.

لم يكن كلامها للرغبة في التدلل أو في تحسين معاملتها، بل الواقع أنها مستمتعة بهذه البراري الشاسعة حيث تطارد الأغنام وتوجهها إلى حيث ينتظرها نيل. ولكنها لا تدري لماذا اختارها

www.liilas.com

هي بالذات لتقوم بهذا العمل. وها هي الآن، متسخة وعطشى تبذل جهدها لتتجنب دهس هذه الحيوانات السخيفة المصممة إما على العودة من حيث أتت وإما على رمي نفسها تحت الإطارات.

صاح بها بصوت مرتفع طغى على هدير السيارة.

ـ انتبهي! فهذه السيارة تكلفنا ثروة!

وتوقفت أمام البوابة:

ـ آسفة.. هل هذا القطيع كله؟

ـ يفترض ذلك إلا إذا نسيت عدداً منه.

فدفعت بأناملها إلى شعرها المغبر:

ـ هذا ممكن طبعاً.. كم عدد هذا القطيع؟

نظر نيل إلى الخراف مفكراً:

ـ حوالي الخمسمئة.

ظنت روكسان أن عملها قد انتهى، فسألته وهي تتوق إلى دخول الحمام لإزالة الغبار والأوساخ عن جسدها:

ـ هل أستطيع الذهاب الآن؟

فرد عليها باقتضاب:

ـ لا. لا يمكنك الذهاب. أريد تفقد سد المياه في المرعى الآخر.. هيا تحركي.

صعد إلى جانبها، ولم يستطع الجلوس فوراً، فقد ترددت كلبتها قليلاً قبل أن تفسح له مجالاً، فقال بنزق:

ـ لماذا أحضرتها معك؟

فابتسمت روكسان لكلبتها المخلصة: «لم تشأ البقاء بمفردها».

فتمتم: «إنها حيوان سخيف».

ـ هي غير نافعة لقيادة الخراف طبعاً.

فنظر إلى الكلبة التي قفزت إلى المقعد الخلفي ووقفت تحدق إليه بغضب:

ـ إنها لاتنفع لشيء.

كان السد في أبعد طرف في المرعى أما مساحته فتقدَّر بمئتي فدان. وكان محفوراً في الأرض البنية منذ الصيف الماضي، ولكن العشب لم يكن نامياً على جانبيه بسبب قلة المياه فبدا أشبه بجرح أحمر على سطح الأرض. ترجلت روكسان من السيارة ونظرت إلى وجه نيل فرأته يزمّ شفتيه بشدة لأنه رأى كمية الماء الضحلة المستقرة في قعر السد.

تمتم متجهماً: «لا فائدة من قيادة القطيع إلى هنا إذ ليس فيه ماء».

نظرت الفتاة إلى ما حولها وسألت:

ـ أليس هناك مضخات هوائية؟

ـ لا مياه جوفية في هذا الجزء من البلاد، ولا يملأ السد إلا مياه المطر. والله أعلم متى تمطر.

نظر إلى السماء الصافية الجميلة ثم ردّ بصره إلى روكسان فشاهد ابتسامة رضى لمرأى السماء الرائعة فقال ببرود:

ـ في الواقع، لا أرى سبباً للابتسام هنا. فهذا السد يعني الحياة للحيوانات، لذا لا يستدعي منك الابتسام.

ـ لم أكن أبتسم لهذا. بل كنت أتمنى لو أستطيع الحصول على قطعة قماش زرقاء كهذه السماء لأخيط منها فستاناً.

عندها توجه نحو السيارة. ما أسخفها! أتفكر في السماء

www.liilas.com

والفساتين؟ هل هذه المرأة مجنونة؟ لم يسمع قط ما هو أسخف من هذا!

كان من المستحيل ألا تحس بعد الظهر بالتعب والنعاس. فما مر بها من عمل مختلف عن كل ما فكرت فيه في حياتها، وهذا ما دفع السيدة هايدواي إلى أن تقترح عليها التمدد على الكرسي الطويل ذي الوسائد السميكة طلباً للراحة مدة ساعة أو ساعتين. وما هي إلا دقائق قليلة حتى غرقت في سبات عميق وتحت قدميها الكلبة فلوفي.

وصل أليكس بعد قليل ليستحم ويغير ثيابه. ثم دخل إلى المطبخ ليرى أمه وهناك وجد روكسان غارقة في نومها على الكرسي فقال:

- لقد فاض بروكسان الكيل.

- وهل تستغرب ذلك؟ لقد جعلها نيل تخرج باللاندروفر طوال النهار لجمع القطيع. وهي غير معتادة على هذا العمل، وفي الواقع أراني دهشة، ومشمئزة منه بسبب ذلك ولكنها استمتعت به فقد وصفت لي بمرح ما فعلته وما شاهدته.

وترددت قليلاً.. أما أليكس فمد يده ليتناول قطعة بسكويت.

- أليكس.. لا أريد أن تظن بأنني أتدخل في شؤونك ولكنني لا أفهم كيف يمكن لفتاة كروكسان أن تورطك بهذه الديون كلها؟

واندفع بعض البسكويت في الاتجاه الخاطىء في حلق أليكس فسعل سعالاً قوياً. انتظرت والدته وملؤها العزم على متابعة ما تريد قوله:

- ليس هناك ما هو شاذ فيها كما لا أراها ترتدي ما هو غالي الثمن ولا أسمع منها ما هو مبتذل أو سخيف من الكلام. وما يلفت نظري تعقلها ودماثة أخلاقها. ما أشد سعادتي بك لأنك ستتزوجها.. فكيف حصل أن تورطتما بهذه الديون كلها؟

فكر الابن بسرعة لاعناً نفسه على هذه الورطة. إنه يكره خداع أمه أو إقلاقها، وفكر في ما سيكون رأيهما الصريح بشارلوت الأصلية.

- ربما كنت أنا المبذّر.. تعلمين كيف.. أردت أن أظهر ثرائي إذ تعتقد بعض فتيات المدن أن لدى رجل الريف المال الكافي لإنفاقه.

فقاطعته أمه: «ولكني لا أرى روكسان من هذا النوع».

- لقد كان ما جرى غلطتي..

ثم توقف عن الكلام ممتناً لروكسان التي دخلت من باب الشرفة تفرك عينيها وتنظر معتذرة:

- سيدة هايدواي، أنا آسفة.. لم أشأ النوم، يبدو أن الطقس هو السبب، فما إن جلست على تلك الكرسي حتى أصبحت في أرض الأحلام.

فتمتمت السيدة مبتسمة:

- وهل رأيت في منامك ما هو جميل؟

- في الواقع رأيت فلوفي تشارك بجمع الخراف.

وانفجر الثلاثة بالضحك لمجرد التفكير في الأمر.

فعل بها الحمام الساخن والثياب النظيفة العجائب، ومن جلس على مائدة العشاء كانت فتاة مختلفة كل الاختلاف. نظر إليها نيل باستغراب. من حقها أن تكون متعبة ومن حقها

www.liilas.com

الاعتذار والبقاء في الفراش طلباً للراحة، ولكن من الواضح أنها من طينة صلبة ومن المؤسف أنه لا يتوقع منها المساعدة في عملية جز الصوف التي ستجري بعد أسابيع. إن مجرد التفكير في منظرها وهي تحت الخيمة الكبيرة بين فريق الجز والخراف جعله يبتسم ويبدو مرحاً طوال الوجبة.

بعد العشاء قال لها أليكس:

- الطقس جميل. لتتمشى قليلاً.

- حسناً.. سأحضر معطفي.

عرفت أن الرفض سيكون شاذاً، فالخطاب يقومون عادة بهذه النزهات تحت ضوء القمر. سألته وهما يسيران في الحديقة:

- حسناً.. هل تراني ناجحة فيما أفعل؟

- بل أكثر من ناجحة، فأمي تتساءل كيف لفتاة مثلك أن تورطني بتلك المشاكل كلها.

- أليكس.. أتعني..؟

فهز رأسه:

- أجل.. أنت رزينة وعاقلة وطيبة جداً جداً.

- شكراً لك. أهذا يعني أنني بنظر أمك وأخيك غير مغفلة؟

- لا يُمكن مقارنتك بشارلوت.

ضرب بطرف حذائه قطعة حطب على الأرض، فركضت فلوفي وراءها ظناً منها أنه يلاعبها. سألته مفكرة:

- وماذا أفعل؟ يستحيل أن أتصرف بتهور في هذا المكان، فليس فيه محلات أو دور أزياء..

- سيتساءل نيل عما قريب. وإن لاحظ شيئاً فسيستخرج الحقيقة مني في وقت قصير!

- وهل علينا أن نهتم له كثيراً؟

- بالطبع، فهو من افتعل هذه الضجة بشأن ديوني.

- وعمله مبرر.. ربما يظننا قررنا قلب صفحة جديدة في حياتنا أم تظن أن من الأفضل أن أرحل..

فصاح بسرعة:

- لا.. لا.. لا يمكنك هذا! فما زال الوقت باكراً على اكتشاف عدم انسجامنا. أعني لم يمضِ على وجودك في المزرعة سوى أيام.

- أدرك أن هذا صحيح.. وسيبدو الأمر غريباً لو حصل الآن.

- كما أن أمي تراقبنا وقد تتساءل لماذا لا نبدو عاشقين.

بدا المرح في صوتها وهي ترد.

- وهل وجدنا الوقت الكافي لذلك؟ فمنذ وصولي ونحن مشغولان طوال الوقت.

- إنه شيطان عمل ولكن الغلطة غلطتي.. يجب أن يكون معنا عامل إضافي، ولكنه لا يستطيع تحمل أجره، إنما من الإجحاف أن يطلب منك أنت هذه الأعمال.

فكرت روكسان: إنه لا يطلب بل يأمر. وأحست برغبة في الدفاع عن نيل:

- أستمتع بما أقوم به، فالهواء الطلق يناسبني. ليتني أستطيع فقط التخلص من التعاس!

- إنه تغيير الجو. متى أنهيت دراسة التمريض؟

- منذ أربع سنوات.

- وهل تحبين عملك؟

www.liilas.com

- أجل.. فأنا أحب الناس، وأقابل مختلف الأجناس.. وأحب الشعور بأنني أخدمهم، وأساعدهم على الشفاء.

بعد صمت قصير فاجأها بسؤال:

- هل أحببت يوماً يا روكسان؟

ملأت البسمة وجهها وهي تجيب:

- مرة واحدة.. على الأقل هذا ما ظننته.. لقد مضى على هذا سنوات طويلة، وكنت يومذاك في الثامنة عشرة. أما هو فكان أستاذي في الكلية. وبعد أسابيع من تعارفنا كنت أشعر بشوق غريب إليه عندما أكون بعيدة، ووقعت في حبه.

وأخذت تضحك قبل أن تكمل:

- كان يقول لي إن إخلاصي في حبه هو دافعه للحياة ولذلك فهو يحبني.. ثم في أحد الأيام، وصلت فتاة إلى الكلية تسأل عنه، وعلمت أنها زوجته التي جاءت لتنضم إليه في مسكنه الجديد..

- آه، روكسان!

وجد أليكس نفسه يضحك بسبب لهجتها وأحسّ بعاطفة نحوها. فهي قادرة على رؤية الجانب المرح حتى فيما حطم قلبها.. وأكملت:

- لا يا أليكس.. ما زلت سليمة القلب.. في الواقع لم أجد بعد ذلك الوقت الكافي للحب.

عادا ببطء إلى المنزل وتابعت كلامها في موضوع آخر:

- سأتفقد سيارتي في الصباح الباكر، إذ لم أهتم بها منذ وصولي.

- سأملأها بالوقود.

- وعليّ تفقد الإطارات عدا أشياء أخرى.

فرفع حاجبيه: «وهل تفهمين بالميكانيك أيضاً؟»

- لا فائدة من اقتناء سيارة بدون معرفة بعض الأمور.

كان أليكس مبتسماً عندما دخلا إلى المنزل. فنظر إليهما نيل من فوق الصحيفة التي كان يقرأها.. بدوا مسرورين وراضيين فتساءل للحظة عما يشعر به الإنسان وهو برفقة فتاته تحت ضوء القمر.

استيقظ الجميع باكراً في اليوم التالي.. وقام كل بعمله المعتاد قبل أن يخرجوا.. حلبوا الأبقار، أطعموا الدجاج وجمعوا البيض.. ثم تفحصوا الجياد للمرة الأخيرة، قبل نقلها إلى العربات التي ستنقلها.. وما إن سنحت الفرصة لروكسان حتى سارعت إلى سيارتها فرفعت غطاء المحرك، وانشغلت بتنظيفه والعناية باحتياجاته. وفيما كانت تنظف «المشاحات» من الغبار، مر بها نيل ففكرت هل يعتقد أن السيارة هدية من أليكس وهل يتوقع وصول فاتورتها قريباً.

دخلت السيدة هايدواي إلى الكراج ومعها سلة مليئة بالأطعمة وأكياس صغيرة فيها ملابس. ووضعت ما تحمله في صندوق سيارة روكسان، وسرعان ما غادروا مزرعة «الأوز البري» باتجاه البلدة، أليكس بجانبها يجيب عن أسئلتها الكثيرة، وأمه تستمع وتتساءل.. هذه الفتاة مهتمة حقاً بما تراه، وتبطىء في قيادة سيارتها عندما ترغب في رؤية المزيد، وتصيح بإثارة لمنظر حيوان بري يمر بالقرب منهم. وتضحك لمنظر طيور «الكوكاتو» البيضاء. إنها مستمتعة حقاً بما تراه.

انشغلت روكسان بتأمل عربات الخيول المتوقفة قرب باحة

www.liilas.com

السباق، حتى عاد أليكس إليها وقد بدّل ملابسه بملابس الفروسية. أمسك ذراعها ليعرفها إلى المتسابقين من البلدة والجوار.

كان الجميع من الرجال الكبار، ولكنها لاحظت أن نيل أطولهم.. وتقدمت من الفرس «ريد ميرمايد» وأخذت تمسح أنفها البني، وتستمع إلى الهمهمات حولها. وأحست بالغبطة لأنها تلعب دور شارلوت، فلولا ذلك لما كانت هنا اليوم، إن جميع من حولها أصدقاء ودودين والنساء يرتدين أفضل ثيابهن عازمات على قضاء أفضل الأوقات في البلدة.

زاد في متعة النهار الغداء الذي وضع فوق البسط على العشب قرب السيارة. كانت الشمس فوق الرؤوس تشع بقوة وشعرت روكسان بأنها تناولت أشهى وجبة طعام.

بدأ السباق بين فريقين من بلدتين تبعد إحداهما عن الأخرى مئة ميل. وتقدمت روكسان نحو الحاجز المحيط بالحلبة وتبعتها السيدة هايدواي وابنها الأكبر. كان السباق مثيراً، فشعرت روكسان بالسرور، ولكن يدها ارتفعت إلى فمها خوفاً بعد تصادم جوادين ووقوع فارسيهما إلى الأرض. سارع رجال الإسعاف لنجدتهما وشخصت الأنظار باتجاه واحد وران الصمت على الحشود أما الجياد الأخرى فتابعت المسير نحو الهدف. فجأة لمحت وجهاً مألوفاً يركض وبيده حقيبة طبيب لينحني فوق الرجل الممدد. فرفعت يدها ثانية إلى فمها، وشحب وجهها، فقد كان أحد الأطباء الذين عملوا في مستشفى الجامعة حيث درست، وكان بينهما إعجاب متبادل وصداقة.. وإن شاهدها هنا فسيلقي عليها التحية بصوت مرتفع.. ولن يمضي وقت حتى

يعرف أهل البلدة من هي.. لكن لن يحدث هذا إذا أسرعت لشرح الأمر له.. فهي لا تريد للسيدة هايدواي المزيد من الألم كما لا تريد أن تسمع من نيل رأيه فيها.

وابتسم لها نيل بقلق، فقد كان يراقب تعابير وجهها.. وقال متسائلاً:

ـ هل تضايقك رؤية الدماء؟

عندما شعرت بالسخرية في كلامه أخرجت العذر الأول الذي تبادر إلى ذهنها.

ـ فاجأني الأمر، وكان يمكن أن يكون أليكس المصاب.

* * *

www.liilas.com

٥ ـ جمال القلب

لاذت روكسان بعد ذاك الحوار بالصمت تفكر في طريقة لتتصل بها بالطبيب الشاب الذي يعنى الآن بالمصابين في مكان ما. كانت متأكدة أنهما سيلتقيان في وقت ما فهناك حفلة راقصة مساءً والسباقات ستجري في الصباح أيضاً وطوال اليوم التالي، وهي تعرف كم يحب هاري الصحبة وكم تحبه الصحبة.

فتشت عن أليكس فربما يستطيع مساعدتها ولكنها لم تجده.. فوقفت قرب السيارة، تصغي إلى أحاديث الناس حولها، ثم دخل فريق آخر إلى حلبة السباق فشخصت الأنظار إليهم.

وعندما ظهر أليكس أخيراً.. انتظرت روكسان فرصتها وأمسكت بذراعه، وقالت هامسة:

ـ أليكس، أريد محادثتك.

نظر إليها دهشاً وسارع إلى السؤال:

ـ هل من خطب؟ تعالي إلى هنا.

ابتعدا عن السيارة ووقف نبل يراقبهما. وما إن أصبحا بعيداً عن السمع حتى قالت:

ـ ذلك الطبيب.. عرفته في الجامعة.

ـ من؟ هاري ايرڤنغ؟

ـ أجل.. وسينسف لنا كل شيء حالما يراني، إلا إذا حذرته أولاً. لقد كنا صديقين، ومن الطبيعي أن يلقي عليّ التحية عندما يراني، وأنت تعلم كم هو بشوش وثرثار!

ـ أعرفه تماماً!

بدا القلق عليه، فسألته:

ـ هل بإمكاننا الانفراد به في مكان ما؟ أفكر في أمك وفي ما ستحس به من ألم خاصة أن نيل سيكون مستمعاً.. لماذا جعلت حياتي معقدة هكذا؟

نظر إليها أليكس وهي تعض شفتها وتحدق إلى ما حولها.. فوضع يده على ذراعها وابتسم:

ـ لقد فعلت هذا بسبب طيبة قلبك. لقد أردت مساعدتي!

ـ ليس الأمر هكذا أبداً بل هي روح المغامرة الغبية التي تسيطر عليّ.

فقال مطمئناً:

ـ ما إن نشرح الأمر لهاري حتى يعود كل شيء إلى ما كان عليه، فأنا أعرف أنه سيلوذ بالصمت.. تجولي هنا ريثما أبحث عنه لأجلبه لك ولن يستغرب أحد تصرفي لأنني أريد أن يتعرف الجميع إلى خطيبتي.

كانت بعيدة عن الحشود قليلاً عندما لاحظت الرجلين يتقدمان نحوها.. ليت هاري يعدل من وتيرة صوته المرتفع! فما إن يلقي التحية حتى يسمع جميع المحتشدين صوته. ولكنه كان يتحدث مع أليكس عندما التقت بهما، ولم تظهر الدهشة على وجهه بل السرور فقط. قال بصوت منخفض:

www.liilas.com

- حسناً.. حسناً.. يسرني التعرف إليك آنسة مايسون.

ومد يديه إليها ليأخذ كلتا يديها ويشد عليهما بقوة. وأكمل ضاحكاً:

- إنه المأزق اللاتق الذي تزجين نفسك به دائماً روكسان، أليس كذلك؟ مع أنني أعترف أنني صدمت عندما أخبرني أليكس بهويتك.. بعدما بدأت باستكشاف البلاد وصلت إلى هذا المكان مع خطيب وسيم مهذب يجري وراءك.

فابتسمت له:

- هل قال لك إذن؟

- قال ما يجعلني أكثر عطشاً إلى معلومات أخرى ترويني.. آه. ما أروع رؤيتك يا روكسان. التقينا آخرة مرة في عشاء الاتحاد الجامعي.. أتذكرين؟

- وهل هو عشاء يُنسى؟ أنا مسرورة بلقائك. ولكنني لم أتصورك طبيباً في ضاحية ريفية، فقد كنت جموحاً في طموحاتك وأحلامك وكنت تريد اقتحام عالم الطب باكتشافات جديدة.

- وما زال الوقت أمامي لتحقيق ذلك! أنت إذن مخطوبة لأليكس!

- فقط في الوقت الراهن. أرجوك.. أرجوك لا تفضح أمرنا، فمستقبله وحياته كلها رهن بذلك. أنا أساعده فقط..

- يجب أن أسمع القصة كاملة وتأكدي أنني سأحافظ على سرك الرهيب.. فلقد اعتدت على الأسرار بسبب مهنتي، وقد يدهشك كم من الأسرار أودعها معي بعض المدعوين وهي أعظم من سركما وأسوأ. أنا مسرور لأنني قد أتمكن من الاعتماد على

قدراتك في التمريض.

- هاري..! لا!

- روكسان.. بلى. فلدينا نقص في الممرضات إذ لا تقبل الممرضات ترك العمل في المدينة للمجيء إلى هنا. وإن وقعت لدينا حوادث سيئة فستقع في مشكلة.

لمس ذقنها بأصابعه:

- سأقوم بابتزازك يا عزيزتي.. فأعطيني وعداً بالمساعدة.. إن احتجت إليك. إذا تمنّعت توجهت رأساً إلى المذياع لأعلن: «تلك المرأة الواقفة هناك، التي تعرفونها باسم شارلوت.. ليست سوى ممرضة..» لا.. لست بحاجة لوعدك لأنني أعلم أنك ستساعديني وقت الحاجة، ليس لأنني أريد هذا بل لأنك تحبين المساعدة بطبعك.

فردت بعذوبة: «صحيح ما تقوله هاري».

وأدار أليكس وجهه عنهما.. في هذا العالم أناس مخلصون.. أحس بصغره وقلة فائدته أمامهما. ماذا فعل حتى الآن؟ لقد أقلق بال أمه، وأثقل كاهل أخيه بديونه، وتوسل المساعدة من فتاة غريبة.

سمع هاري يقول له:

- إنها ممرضة ماهرة.. ولكن الناس لا يصدقون ذلك بسبب طريقتها في التصرف أحياناً. آه.. ها هو نيل. مرحباً نيل، كنت أتعرف إلى زوجة أخيك العتيدة.

ولم يظهر على نيل أي اهتمام لفكرة زوجة الأخ. بل سأله:

- كيف حال أرنولد ورالف؟

- لوى أرنولد كتفه بشدة.. أما رالف فسيكون على ما يرام

www.liilas.com

بعد أن يستريح الليلة. سأعود الآن، فقد يحتاجني أحد مع أنني أتمنى عكس ذلك حقاً. ربما نلتقي ثانية في حفلة الرقص الليلة آنسة.. آه.. مايسون. أليس كذلك؟

فغضت روكسان طرفها وردت:

ـ أجل يا دكتور.

راقبت السيدة هايدواي روكسان وهي تضع اللمسات الأخيرة على زينتها في غرفتهما المشتركة، وهزت رأسها. كل ما قد تصورته عن شارلوت تلاشى في الأسبوع المنصرم. راقبت أحمر الشفاه يرسم خطاً جميلاً على ثغرها الجميل ثم هزت رأسها ثانية. كيف لروكسان وأليكس أن يورطا نفسيهما بتلك الديون؟ حبها الطبيعي لولدها لم يعمها عن أخطائه، فهي تعلم أنه مسرف في كل شيء، وهو يهوى القمار والمراهنة على الخيل. في طفولته، كان ينفق ماله بأسرع مما يحصل عليه. وابتسمت روكسان:

ـ هل أنت بانتظاري لاستخدام المرآة؟ آسفة لتأخري. ولكن عندما لا يكون للفتاة جمال أساسي، تحاول تحسين مظهرها قدر المستطاع..

وضعت السيدة يدها برقة على كتف الفتاة:

ـ الجمال يكمن في الداخل يا روكسان. جمال الإنسان الحقيقي كامن في قلبه، وأنا مسرورة لأنك كما أنت لا كما تصورتك.

ـ وهل تصورتني خارقة الجمال؟

ـ لا.. لم أتصورك خارقة الجمال..

غيرت لهجتها لتقول بعدما سمعت طرقاً خفيفاً على الباب:

ـ لقد تأخرنا ولم نستعد بعد!

وسمعنا صوت مضيفتهما قبل أن تدخل:

ـ هذا أنا.

وبعد لحظات دخلت ابتنا المضيفة لتبدي إعجابهما بروكسان، ثم خرجن جميعاً إلى الحفلة. وكانت روكسان سعيدة فهي لم تسرف في أناقتها عندما اختارت الثوب الذي ارتدته.

كان نيل بانتظار الجمع الصغير خارج الغرفة، فهز رأسه بالموافقة على ما شاهده، وأحست روكسان بشعور غريب نحوه. ونظر إليها فلاحظت الدهشة في نظرته وتساءلت عن السبب.. ثم انضم أليكس إليهم وشبك ذراعه بذراعها.

كانت القاعة مزدحمة والنساء في فساتين سهرة جميلة، والرجال في بذلات رسمية..

من المدهش كيف يتصرف المرء في مثل هذه الأجواء، وكالعادة، استخدمت الأسماء الرسمية بحرية واعتادت على سماع اسمها «الآنسة مايسون».. غمز لها الطبيب مبتسماً، وأخذ نيل ينقل بصره من الطبيب إلى روكسان فإلى أليكس.. ثم هز كتفيه، فما شأنه بروكسان وبمن يغمز لها من الرجال.

وجاءت اللحظة المتوقعة عندما تقدم منها هاري ايرفنغ، منحنياً بطريقته التي كانت تضحكها دائماً وطلب منها منحه السعادة في الرقصة التالية.

تمتمت له وهو يضع يده على خصرها، ويشدها بشكل لم يكن ضرورياً:

ـ بالله عليك أخفض صوتك.

ـ من يسمعك يظن أن من عادتي الصراخ!

www.liilas.com

فنظرت إليه وعيناها تلمعان:

- بل أنت معتاد على ذلك. أتذكر عندما كنت تصرخ على الممرضات في مستشفى الجامعة؟ كنا نسمعك ونحن في قاعات الدرس!

- آه.. تلك الأيام الجميلة.. أين ولت يا روكسان؟ لم ألتق بأولئك الفتيات منذ ذلك الوقت!

- لقد أكملت تخصصي في التمريض ثم التحقت بعيادة الطبيب دايفد المشهور للتمرن.

- آه.. صاحب العقل الفذ ولكن كيف توصلت إليه؟

- لقد أرسلتني الكلبة إليه..

- هذا شرف كبير لك.

فهزت روكسان رأسها.

- انظري لماذا يحدق نيل فينا بهذه الطريقة؟ هل أضمك كثيراً أم أكثر من التحديق إلى عينيك أم ماذا؟

- لا علاقة لنيل بما أفعله أنا أو أنت.

دوت ضحكته في الغرفة وهذا ما دفع المدعوين حول نيل للالتفات إليهما، فأدارها مرات ومرات لأن الفرقة همّت بالتوقف عن العزف. قال أخيراً:

- شكراً لك يا ملاكي.. هل لي برقصة أخرى فيما بعد؟ فطالما استمتعت بضمك إليّ.

- هاري.. ما بك؟

فضحك وانحنى لها بطريقة مبالغ فيها أمام أليكس.. ثم سارع إلى الغرفة ليطلب مراقصة فتاة أخرى.

بعد العشاء تذكرت روكسان كلبتها النائمة في السيارة..

خرجت إلى الخارج. وأخرجت فلوفي لتسير معها. كانت النجوم مضاءة فسحرها هذا الجو، وفكرت في هاري ثم في نيل. ترى لماذا رمقهما نيل بتلك الطريقة..؟ استجمعت أفكارها فهي لا تهتم بنيل مهما فعل. وصاح بها صوت هاري من خلفها:

- ها...! أنت تعدين النجوم وحدك؟

- لا.

ولوحت بيدها نحو فلوفي وشرحت له سبب خروجها فأليكس يراقص فتاة أخرى وهي بالطبع لن تطلب من نيل مرافقتها للسير مع الكلبة! وأكملت متنهدة:

- وهكذا ترى أنني مضطرة لتحمل هذا كله وقتاً أطول قليلاً.

- روكسان، أنا معجب بروحك المغامرة! وأظن أن ليس من الصعب الوقوع في حب ما تبقى منك!

- لن تجرؤ على هذا! فلدي ما يكفيني مع خطيب واحد. كما أنني صممت على إنهاء جولتي في البلاد والعودة إلى منزلي.

تابعا مسيرهما وهما يتحدثان عن أمور عامة وعن أيامهما الماضية، وكانت الابتسامات أحياناً تضيء وجهيهما.. وغرقت في محادثتها إلى درجة لم تلحظ معها خروج نيل إلى الهواء الطلق. لم يكن قادراً على مغادرة الاحتفال بدون أمه ومضيفيهم الذين يبيتون عندهم.. ولكن توتره ازداد وأصبح غضباً حالما شاهد روكسان برفقة رجل قابلته للمرة الأولى بعد ظهر هذا اليوم.

www.liilas.com

تمتم لنفسه بوحشية: «أيتها المتقلبة، الكسولة، غير النافعة».

وارتد على عقبيه بعدما شاهده هاري، الذي استقام في وقفته وقال متنهداً بصوت منخفض:

- ها قد بدأت المشاكل!

* * *

٦ - عاشقان غريبان

بعد نهاية الأسبوع تلك بدا نيل مختلفاً. كانت روكسان قبل ذلك تشعر أنه يتصرف معها بطريقة سيئة، ولكنه الآن أصبح أسوأ في معاملته لها، ولم تستطع فهم السبب، فهي لم تشاهده خارج قاعة الرقص يومذاك لأن ظهرها كان إليه أما هاري فلم يقل لها شيئاً عن نظراته وتمتماته.

سولت لها نفسها أكثر من مرة أن ترد في وجهه بالطريقة ذاتها، ولكنها لاحظت نظرات أمه الحيرى المتألمة، فصمتت وتابعت القيام بالأعمال الموكلة إليها.

تفهمت بطريقة ما جزءاً من مشكلته. إذ كان كل يوم نسخة عما سبقه، سماء خالية من الغيوم وشمس ساطعة، أما الليل فجليد يحرق ما تبقى من عشب نجا من جفاف الأرض. لذلك عندما طلب منها بجفاء مساعدته في إصلاح «التراكتور» هزت رأسها بصمت وتوجهت إلى غرفتها لتغير ملابسها. وما إن غادرت الغرفة حتى التفتت أمه إليه مستنكرة وقالت بحزم:

- إصلاح التراكتور ليس عملاً نسائياً.

- ومن يستطيع مساعدتي إذن؟

عندك أليكس..

www.liilas.com

ـ سيقوم أليكس بطلي السقيفة التي سنجز فيها صوف الأغنام. فإن تضاعفت حرارة الجو فلن يستطيع أحد الوقوف هناك، فما بالك بطليها.

ورمقها بطرف عينه وأكمل:

ـ بالطبع، إن استطاعت روكسان أن تصعد...

ـ نيل!

ـ إما هذا وإما ذاك، لديها خبرة بمحركات السيارات وهذا يعني أن لديها فكرة عن المحركات عامة وما قد أحتاج إليه.

ـ ولماذا يجب إصلاحه الآن؟

ـ أريد حفر سد آخر في المرعى البعيد. فستمطر يوماً ما وعندها نتمكن من توفير القدر الأكبر من الماء للماشية.

هزت الأم رأسها، فالشرح منطقي.. ورفعت نظرها نحو السماء تتساءل متى ستمطر قبل اشتداد حرارة الصيف.. فقد جف كل شيء وقلّت المياه في خزانات المنزل.

أعادت النظر إليه مبتسمة:

ـ حسناً.. إنما لا ترهقها بالعمل.

لحقت به روكسان تتبعها كلبتها التي جلست أرضاً حالما توقفت سيدتها قرب التراكتور.

سألته روكسان: «ما به؟»

فأدار نيل رأسه ونظر إليها مشفقاً:

ـ لو كنت أعلم لما فككته قطعاً. أليس كذلك؟

ـ هذا صحيح على ما أعتقد.

ـ هناك صندوق فيه مفاتيح ومفكات براغي.

ثمة ميزة فريدة في العمل مع نيل، فهو لا يقاطع أفكاره

أبداً بكلام لا لزوم له. فخلال نصف ساعة لم يكلمها إلا مرتين، لطلب مفتاح ورافعة، ولكن طبعاً يصعب عليه الحديث وهو مستلق على ظهره. وأصاب إصبعه مرة فصرخ متألماً فانحنت تبتسم له متعاطفة، ثم تنهدت.. فلم يظهر أي رد على وجهه، بل عاد إلى التحديق في التراكتور.

بعد ساعتين، صاح أليكس من فوق السطح طالباً من أمه تحضير العصير فقد جفّ حلقه وهو يدهن السقف، فلوحت له وصاحت طالبة منه جلب روكسان ونيل معه لتناول العصير، فقد كانت قلقة على الفتاة من ذلك العمل القذر.

تمطى قليلاً محركاً ذراعيه ورقبته، ثم تقدم نحو السقيفة الكبيرة، فلوحت فلوفي بذنبها ترحيباً به، ولكن الشخصين الآخرين كانا منشغلين بعملهما بحيث لم يلاحظا وقوفه في الباب حيث راح ينظر إلى رأس روكسان المحني وإلى ساقي نيل الممددتين بين الإطارات.

وقطب.. روكسان خطيبته هو، فلماذا يصر نيل دائماً على أن تقضي الوقت برفقته؟.. ولكنها في الواقع ليست خطيبته، وليست ملكاً لأي منهما. وإذا ما أظهر أي منهما انفعالاً في وجهها فقد تركب سيارتها وتختفي من حياتهما إلى الأبد.. ولكن هل سيتأثر نيل؟ تفكير سخيف!

ناداهما: «بانتظارنا بعض العصير».

فأدارت روكسان رأسها قليلاً وهزته شاكرة. في هذه اللحظة مرت بذهن أليكس فكاهة عن الموقف: «الدكتور هايدواي يجري عملية جراحية للتراكتور بمساعدة الممرضة القديرة الآنسة تبست.. وهما فريق عمل منسجم جداً جداً.. وها هو يسمع

www.liilas.com

أوامر الجزّاح لمساعدته «مفتاح الرنش» أو «المفتاح المسنن» أو «المبرد» وما إن يطلب الشيء حتى يصبح في يده». فلم يتمالك نفسه عن الضحك. خرج نيل من تحت التراكتور وجلس، وهو يفكر من أين اكتسبت روكسان هذه الخبرة بالأدوات، فهو لا يعلم أن هواية والدها كانت النجارة، وأنها ساعدته منذ الطفولة.

سأل نيل أخاه:

ـ هل قلت عصيراً؟

فهز أليكس رأسه:

ـ لقد أعدته أمي وهي بانتظارنا خارج المنزل إذ تقول إن أياً منا غير مؤهل لدخول المنزل.

ومدت روكسان يدها إلى بعض الخرق لتمسح يديها:

ـ أوافقها الرأي فلا شك أن صورتي الآن رائعة.

فنظر إليها أليكس وقال بخبث:

ـ أنت فعلاً رائعة. وستبقين صورة جميلة بالنسبة لي!

ـ صورة ماذا؟

ـ صورة للإغواء..

والتقط الرمقة التي رمته بها ضاحكاً. وقالت لنفسها:

«سأرحل من هنا حالما أنهي إصلاح هذا اللعين. لن أبقى ثانية واحدة ليتجاهلني الأول ويغازلني الثاني!»

وكأنما أحس أليكس بما تفكر فيه، فتقدم منها وهمس:

ـ آسف يا روكسان. إنما عليَّ أن ألقي بعض ملاحظات الغزل بين الفينة والأخرى وإلا اعتقد نيل أننا أغرب عاشقين شاهدهما يوماً.

ـ أوه يا أليكس!

ـ لم أقصد بكلامي شيئاً.

ـ أرجو هذا حقاً.

ـ تبدين غاضبة.. ألن تسامحيني؟

ـ أجل.. أجل.

ولكنها لن تستطيع مسامحة نيل بالسهولة نفسها. فأقل ما يمكنه فعله هو قول شيء عن تقدم عملهما، أو عن المساعدة التي قدمتها له.

صاحت بهم السيدة هايدواي عندما وصلوا إليها:

ـ يا لمنظركم الرائع! وأنت يا أليكس، ألا يمكنك استخدام فرشاة الدهان بدون تلطيخ نفسك؟

فابتسم ومد يده ليأخذ كوب العصير منها:

ـ أنا لا أنفع لشيء.. أتذكرين؟

فتنهدت متسائلة عن سبب عدم قيام نيل بطلاء السطح وترك أليكس مع خطيبته لإصلاح التراكتور. وعندما ذكرت هذا أمام ابنها الأكبر انفجر ضاحكاً:

ـ وماذا يعرف أليكس عن المحركات؟ أريد استخدام التراكتور قريباً يا أمي لا بعد سنة!

ـ وروكسان؟ هل ستستمر في مساعدتك؟

ـ ولمَ لا؟

ولم يستطع الاعتراف لها بمدى إعجابه بخبرة الفتاة وسروره بمساعدتها له. تنهدت أمه ثانية، فوضع يده تحت ذقنها ليرفع رأسها إليه:

ـ إن كانت ستصبح هذه الفتاة زوجة مزارع فعليها أن تتعلم كل شيء.. ألم تساعدي والدي بإصلاح التراكتور والآلات أبداً؟

www.liilas.com

ألم تساعديه بكل طريقة ممكنة؟

- بلى..

- كنت أكبر منها، لأنني أذكر جيداً يوم قمت بحرث مرعى كامل.

أضاءت البسمة وجهها:

- أذكر هذا.. ولكن يا عزيزي.. لماذا لا تترك لأليكس أمر تعليمها هذا؟ إنها خطيبته!

- أليكس! إنه غير خبير بأمور المزرعة...! كيف يعرف هذه الأمور وقد أمضى معظم حياته في المدينة يبذر وقته ومالنا؟ هو أيضاً بحاجة إلى التعليم.

وهبت للدفاع عن ابنها الأصغر: «يبذل ما بوسعه».

- بل قولي يبذل بعض الجهد.

واعترف لنفسه أن هذه الفتاة قد غيّرت تصرفاته، وتمنى ألا يكون ذلك لمعاناً في مرآة فحسب.

ولكن روكسان معتادة على العمل تحت الضغط، ولو كان هذا في ظروف مختلفة تماماً. وفقدان السيطرة على الأعصاب في أي عمل لا يساعد على تحسين ظروفه، بل على العكس، فقد يزيده تعقيداً.. وعندما علق أليكس بعد مرور يومين على هذا قائلاً إنه لن يتمكن أبداً من العمل مع أخيه في مثل هذه الظروف، أجابت ضاحكة:

- هكذا أنا! دائماً متفائلة.

- لا يا حبيبتي.. مستحيل!

احمر وجهها لكلامه متسائلة عما إذا كان قد نسي حب التعس الحظ، وعما إذا كان يفكر في تحويل عواطفه إليها..

ذلك المساء وهم على مائدة الطعام أعلنت السيدة هايدواي أنها اتصلت بأصدقائها ودعتهم لزيارتها.. فتنهد نيل وسألها:

- أمي.. لماذا؟

صمتت قليلاً ثم أجابت بصوت نكد، دفع روكسان إلى النظر إليها:

- لأنني بحاجة إلى صحبة أحد.. هذا هو السبب!

بعد العشاء مباشرة، سمعت روكسان هدير سيارة المدعوين الأولى ولم تكن قد انتهت من ارتداء ملابسها.. ثم سمعت صوت باب السيارة يقفل وصوت هاري، فخفق قلبها. أسرعت بالنزول إلى غرفة الاستقبال فوجدته يمازح مضيفته ضاحكاً، فالتفت إليها:

- تحياتي آنسة.. آه.. مايسون! آسف.. ما زلت أنسى اسمك.

فقالت له بلطف:

- أحبّ أن يناديني الجميع باسم روكسان يا دكتور.

- حسناً أناديك روكسان وتناديني هاري.

وكان في الغرفة ثلاثة أشخاص آخرين يقفون خلف السيدة هايدواي التي سارعت إلى القيام بواجب التعارف. في هذا الوقت دخل نيل إلى الغرفة، ولكنه قطب جبينه لرؤية الطبيب وقال:

- أنت هنا؟

فأجابه بحزم:

- ولِمَ لا؟ فأنا مدعو.

تقدم نيل من ضيفه الآخر ليتباحث معه أمور التراكتور

وإمكانية هطول المطر، ونقص موارد المياه. ووصلت سيارة أخرى، وتصاعد الضحك والحديث بعد دخول من كان فيها إلى المنزل.

واستمرت الأمسية مرحة هكذا.. وابتعد هاري عن طريق روكسان فقد كان في السهرة فتاة أخرى التصق بها. هو يفضل صحبة روكسان ولكن من المفترض أن تكون خطيبة أليكس، كما أنه متوتر من نظرات نيل الموجهة إليه دائماً.

شاهدت روكسان نيل يتبادل النظرات مع أمه ثم ينظر إلى ساعته وعلمت أنه يفكر في عمل اليوم التالي.. وفهم المدعوون التلميح، فكلهم بحاجة للاستيقاظ باكراً للقيام بأعمالهم كما أن على بعضهم قيادة السيارة ما يزيد عن العشرين ميلاً للوصول إلى منزله. ذهبت روكسان مع إحدى المدعوات لتساعدها في إحضار طفلها النائم في غرفة النوم في الأعلى ثم نزلت وهي تحمله، وقبل أن تعطيه إلى أمه لمست شفتيه بأصابعها بحنان.. فسألتها الأم:

- هل تحبين الأطفال روكسان؟

- أجل..

- ربما ترزقين قريباً طفلاً. هل حددت وأليكس موعد الزفاف؟

- لا.. لم نحدده حتى الآن.

فقالت السيدة هايدواي:

- أتمنى صادقة ألا تتأخرا باتخاذ القرار لأنني أموت شوقاً إلى حفلة زفاف في العائلة.

سألتها ضيفتها السيدة جونسون:

- وهل ستقيمون المراسم هنا؟ إن كان كذلك فسأساعدك يا عزيزتي.

فابتسمت السيدة هايدواي شاكرة، والتفت الجميع إلى أليكس الذي كان يبتسم قلقاً.. وقال متلعثماً:

- لم نفكر حتى الآن في الموعد.

فتدخل نيل:

- سنجري طبعاً مراسم الزفاف هنا، لأنني غير مستعد للذهاب إلى المدينة لحضور حفلة زفاف.

- ولكنك ستكون الإشبين.

- أعتقد هذا.

لم يبدُ متحمساً للفكرة ففكرت روكسان أنه يفضل إيصال العروس إلى غير شقيقه...

* * *

www.liilas.com

٧ ـ الاتفاق المر

قالت روكسان لنيل المستلقي تحت التراكتور:

ـ كانت أمسية جميلة بالأمس.. سأتعرّف قريباً إلى جميع سكان المنطقة.

وكان الرد عليها مجرد همهمة، فنظرت إلى الجزء الظاهر منه وأردفت:

ـ ستكون ممتناً عندما ينتهي هذا العمل يا نيل..

ـ الامتنان ليس الكلمة المناسبة.

لقد أجابها.. وهذا يدعو للفرح. وأضاف:

ـ أعطيني المفتاح المسنن.. الطويل.

تم تجميع المحرك من جديد بعد عناء كبير. تمنت روكسان ألا تضطر للنظر إلى محرك مماثل بعد الآن، وخشيت من مجرد التفكير في ما قد يحدث إن لم يدُر المحرك بعد هذا الجهد كله. نظرت إلى يديها بانتظار أوامر أخرى. كانتا متسختان وأظافرها مكسرة. سمعته يقول من تحت التراكتور:

ـ ألم تسأمي من هذا العمل؟

ـ لا.. كنت أنظر إلى الكلبة وأفكر في ما إذا كانت ستعود نظيفة مرة أخرى.

ـ ليست خسارة إن لم تعد نظيفة.

ـ أنت تكره المسكينة.. لماذا؟

ـ لأنها بدون نفع.

ـ وهل يجب أن يكون لكل شخص ولكل شيء نفع ما في حياتك يا نيل؟

ـ نعم يجب ذلك. أعطيني هذا «الرولمان» من هناك.

وتمتم شاكراً، ثم ساد الصمت بعدما أخذ القطعة المطلوبة وقال فجأة:

ـ يسرني عدم اتخاذكما قراراً بشأن موعد الزواج.

ـ حقاً؟ لماذا؟

ـ لأنكما لن تستطيعا تحمل الزواج قبل فترة طويلة، لقد وصلت فواتير ديون أخرى بالبريد أمس.. وبينها فاتورة لفستان سهرة ثمنه خمسمئة دولار. هل لك أن تشرحي لي هذه الفاتورة، رجاء؟

لم يكن مؤدباً في قوله، بل كان ملء كلماته الغضب والسخرية. فحدقت روكسان إلى قدميه. فستان سهرة؟ والفاتورة تصل إلى نيل؟ ردت: «لا أفهم».

سمى لها نيل اسم المتجر الذي اشترت منه الفستان وأضاف:

ـ أحب أن تفسري لي الأمر.

وردت ببطء، لحيرتها فيما تقوله:

ـ كان هدية عيد ميلادي.

ـ وهل سمح لك أليكس بهذا؟

ـ وما رأيك؟

ـ سأقول لك رأيي بالضبط!

وخرج ليجلس أمام التراكتور:

ـ لا أظنك إلا فتاة تجري وراء المال! سأمنعكما من الزواج حتى تسددا هذه الفواتير وحتى تتمكنا من ادخار بعض المال لتأسيس منزلكما فلا أظنكما راغبين في العيش في المزرعة.

ـ أهذا ما ستفعله حقاً؟

ارتفع رأسها بكبرياء، ونسيت أنها غير مخطوبة وأردفت بغضب:

ـ لن تستطيع منعنا!

علم نيل أنه لن يستطيع، وهذا ما زاد في سعير غضبه:

ـ أتعلمين أن في درج مكتبتي فواتير تبلغ قيمتها ستة آلاف دولار؟ وهي ليست لي أو لأمي..

فشحب وجهها إذ لم يخبرها أليكس بأن الأمر بهذا السوء:

ـ ستة آلاف دولار؟ هل أنت واثق يا نيل؟

ـ وهل أخطىء في مثل هذا؟ من الأفضل لك أن تمثلي عليّ الذهول.

ـ ولكنني فعلاً مذهولة!.. أنا آسفة جداً.

ـ آسفة! الاعتذار لا يفي الديون.

ظل ينظر إليها لبرهة فلاحظ أظافرها المتسخة، والشحم على يديها وذراعيها، وثيابها الوسخة، فتلاشى بعض غضبه، وسأل:

ـ ماذا ستفعلين بهذا الأمر؟

لمست التراكتور، وقالت مفكرة:

ـ كنت ستضطر لدفع ما لا يقل عن خمسمئة دولار أجرة

العامل لو أرسلت هذا إلى الكراج.. إذن احسم هذا المبلغ من ثمن الفستان، وكلما قمت بعمل قد يكلفك مالاً يا نيل سجله على حساب الفواتير. هل يرضيك هذا؟

ابتسمت بسعادة لرؤيتها حاجبيه ينعقدان بتقطيبة، ورد باقتضاب:

ـ أجل..

ـ وإياك أن تخبر أمك فهي قلقة بما فيه الكفاية.

ـ لا.. لن أخبر أمي. ولكنها تعرف بأمر الفواتير، ولا تعرف شيئاً عن ثمن الفستان.

ـ كنت وأليكس غبيين.

أجل هي غبية لأنها أقحمت نفسها في هذا. التقت عيناها بعينيه:

ـ يجب أن يتحمل حصة من هذا. وعندما يقوم بعمل كطلاء السطح الذي يكلف مالاً ليد عاملة، احسم المبلغ من الديون كذلك.

ـ هذا أمر منصف.

وتلاشى غضبه لأنه لم يظنها عاقلة هكذا.. فقد توقع الدموع أو الرد بقسوة أو القول في فورة غضب إنها لن تتزوج من أي فرد في هذه العائلة أو رمي خاتم الخطوبة في وجهه والرحيل.. ولكن لماذا ترمي خاتم الخطوبة في وجهه.. ما دام لم يعطها إياه؟ ورمى نفسه مجدداً إلى الأرض تحت التراكتور متمتماً:

ـ أعطني علبة زيت المحركات تلك.

بعد ثلاث ساعات جلس وراء عجلة القيادة، فانتظرت

www.liilas.com

روكسان مقطوعة الأنفاس وهو يضغط زر التشغيل الآلي. ولكن المحرك لم يدر. فنزل من جديد ليعاين بعض أجزاء المحرك. أما هي فحملت كلبتها وقالت:

- سأبقى خارجاً.

نظرت إلى السطح الذي يكاد ينهيه أليكس.. من المؤسف أن عليه تحمل نار غضبها عندما ينزل من هناك، إضافة إلى غضب أخيه.

سمعت من الداخل همهمة ولعنات وشتائم. وكان نيل يصبها كلها على التراكتورات التي ترفض الاشتغال. واستمر سيل الشتائم ثلاث دقائق تقريباً.. ثم خرج بدون أن يلتفت إلى أي كان ووقف تحت أشعة الشمس، ثم لم يلبث أن تابع المسير محني الرأس. أحست روكسان بغضبها يتصاعد أكثر على هذا الظلم فبعد العمل المضني الذي دام ثلاثة أيام لم يدر المحرك، وركضت نحو التراكتور، ورفعت نفسها إلى مقعد القيادة، ثم نظرت إلى ما حولها، وأخذت تضربه بيديها هنا وهناك.. وفي كل مكان.

- أيها الأحمق السخيف.. لماذا لا تدور..؟

وضغطت على زر التشغيل.. فدار المحرك دورة أخرى، ثم أخرى ثم ما لبث أن ضج بالحياة من جديد.

وضعت روكسان رأسها على ذراعيها فوق المقود وأجهشت بالبكاء.. ولم تدرِ ما إذا كانت دموع راحة، أم ردة فعل، أم ماذا؟ ولكن الدموع انهمرت بسرعة أكبر ثم شعرت بأليكس يدخل إلى السيارة ويضع ذراعه حول كتفيها ليسألها عن السبب:

- لم يدر عندما شغله نيل أما الآن فدار. وصلت فواتير

أخرى عليك تسديدها ومن بينها فستان بخمسمئة دولار.. ولكنني دفعت ثمنه الآن بإصلاح التراكتور!

- عمَّ تتكلمين روكسان؟ ليس من عادتك البكاء، هل كدرك نيل بكلام ما؟ هل وبخك لأنك لم تنجحي في فعل شيء ما؟

وتوقفت روكسان عن البكاء وهي تشعر بالخجل. ثم أحست بأن رأسها يستريح على كتف أليكس، وأن ذراعه مشدودة حولها، فابتعدت عنه بسرعة.. فقال مبتسماً:

- ألسنا زوجاً من المغفلين؟

- بل أكثر من هذا!

- ماذا حدث يا روكسان؟

- إن خطيبتك السابقة تشتري الفساتين وربما تشتري أشياء أخرى ثم تسجلها على حساب نيل. لقد تلقى فاتورة بالبريد بخمسمئة دولار.

- خمسمئة؟ ثمن ماذا؟

- ثمن فستان سهرة.

- يا إلهي! لا علم لي بهذا.. كما أني لم آذن لها بذلك. صدقيني.. أرجوك! أما الأشياء الأخرى فقد قيدتها على الحساب لعدم وجود المال الكافي بحوزتي. لا أستغرب نظرات نيل التي رمقني بها هذا الصباح فقد نظر إليّ وكأنني حشرة.

فصاحت به:

- أنت حشرة فعلاً.

ومدت يدها إلى مفتاح التراكتور لتوقف المحرك:

- ستسمع الآن ما سأقوله لك. لقد قال نيل إن لديه فواتير تتجاوز قيمتها الستة آلاف دولار. قل لي كيف أنفقت هذا

www.liilas.com

المبلغ؟ وماذا اشتريت؟

شحب وجهه:

ـ ذهبنا إلى حفلات ونحن نحمل الهدايا ولم تكن شارلوت تختار إلا الأغلى ثمناً لأن أصحاب هذه الحفلات من الطبقات الراقية.

ـ ونفذت لها جميع رغباتها! أعتقد أنك أسرفت في البذخ؟

ـ كما قدمنا الهدايا بمناسبة أعياد ميلاد بعض أصحابها أو بمناسبة زواج. لم أتصورني أنفق هذا المبلغ كله.

ـ ولكن ما من أحد يشتري شيئاً مقابل لا شيء في هذه الأيام.

ـ أعرف.. مسكين نيل. أنا آسف.. لم أقصد أن أفعل هذا.

ومدت له يدها بخاتم الألماس اللماع:

ـ وهذا؟

ـ هذا جزء من الآلاف الستة.

فنظرت إلى الخاتم باشمئزاز، وخلعته من إصبعها:

ـ أوه! لا أريد وضع هذا الشيء بعد الآن!

فنظر إليها بذهول:

ـ أوه.. روكسان؟ هل يعني هذا أنك راحلة؟ لا تفعلي أرجوك.

ـ لن أستطيع الرحيل لأنني وعدت نيل بأن أعمل مقابل تسديد المبلغ.. فسيكون لكل عمل أقوم به أجرة أسدّد بها الديون. ولكن ما إن يتم تسديد آخر سنت من ديونك حتى أرحل.

ـ ولماذا تفعلين هذا من أجلي يا روكسان؟

ـ لا أفعل هذا من أجلك، ولكنني تعلقت بأمك كثيراً وأعلم أنها تعاني من الألم والقلق لذا لن أقول أنا أو نيل شيئاً عن اتفاقنا.. وعليك أنت أن تكتم الأمر.

دخلت السيدة هايدواي إلى غرفة الجلوس مترددة قليلاً أمام الباب وهي تنظر إلى ابنها البكر:

ـ لم أشعر بك عندما دخلت يا نيل.. هل أعدت تشغيل ذلك التراكتور؟

ـ أجل.

ـ وهل شكرت روكسان على مساعدتها؟

ـ هم.

ـ ما هذا برد مناسب. ليتك تحبها قليلاً لأنني أظنها زوجة صالحة لأخيك وأرى أنها شغفت بالريف.

ـ تبدو هكذا.

ـ أتعني أنها تدعي ذلك؟

ـ ممكن.

ـ حسناً أنا مقتنعة بالعكس! أنت ولد تثير سخطي.. حقاً!

أخفض الجريدة قليلاً لينظر إليها:

ـ ولد؟

ابتسمت له وهي تتمنى لو يجد لنفسه فتاة طيبة كروكسان.

ـ أجل، ففي بعض الأوقات أراك ولداً.

وركعت أمام المدفأة لتغذي النار بالحطب.. فقال:

ـ لقد تجاوزت الثلاثين من عمري.

فنظرت إليه نظرة لم يفهمها:

www.liilas.com

ـ كبرت عن التصرفات الطفولية.

ـ ومن يتصرف بطفولية؟ خلتني أتصرف بشكل لائق مؤخراً.

ـ أوه.. أعترف أن الأوقات التي تمر بها قد تجر قديساً إلى فقدان صبره.. ولكن لا فائدة من فقدان أعصابك وإثارة أعصاب الجميع لقيام أليكس بالخطوبة.. الأمر يخصه هو ولا شأن لنا به.

ـ ألست من يسدّد تلك الفواتير التي تهم أليكس والفتاة التي سيتزوجها؟.

ـ ولكنه الآن يقوم بما في وسعه من العمل وكذلك الفتاة، فلماذا تستمر في صب جام غضبك على رأس روكسان؟

ـ لقد تعلقت بها يا أمي.. أليس كذلك؟

لاحظ أن أمه أصبحت أكثر سعادة منذ وصول روكسان إلى المزرعة لذا عليه ألا يفسد عليها سعادتها..

قالت الأم معترفة بصراحة:

ـ هذا صحيح.. العشاء جاهز، وأتساءل أين هما الآن؟

وكان لديه فكرة جيدة عما يفعلانه فهي بدون شك تخبره عن الترتيب الذي اتفقت عليه معه.. وتساءل عما سيقوله شقيقه بصدد ذلك الاتفاق.

• • •

٨ ـ امرأة بوجهين

ظلت طباع اليكس سيئة في الأيام الثلاثة التالية ولكنه لم يقل فيها شيئاً سوى إبلاغ أخيه الموافقة على اتفاقه مع روكسان. كان يحس بحرارة الغضب كلما فكر في ما فعلته شارلوت. وأخيراً، كتب لها رسالة لاذعة، بدون مقدمات أو عواطف.. وهددها بالملاحقة القانونية إن تجرأت على سحب أي شيء آخر على حساب أمه أو أخيه أو حسابه. ثم جلس يفكر في عدم شعوره بالحزن على فكرة الفراق عن خطيبته السابقة. وتمنى من أجل مصلحته ألا يكون قد وقع في حب روكسان لأنه لم يتلق منها أقل تشجيع بل يعرف جيداً أنها ستغادر المزرعة حالما تفي ديونه.

يدرك أن كل شيء قد اختلف منذ وصولها فقد ازدادت إشراقة أمه وخفّت حدة غضب نيل. وفكر أيضاً في ما سيقولانه عندما تعلن روكسان أنهما لم يتفقا ولن يستطيعا الزواج.

عندما أخبر روكسان بما كتبه لشارلوت من تهديد، سارعت تقول:

ـ ليتها لا تفهم الرسالة بطريقة خاطئة وتقرر المجيء إلى هنا لشرح الأمر بنفسها!

www.liilas.com

- رباه! وماذا سنفعل عندئذ؟

- سنقول لها الحقيقة.

- والحقيقة دائماً أغرب من الخيال.. ما هذه الورطة التي زججت نفسي فيها!

وأخيراً جاءها البريد بالرسائل التي طال انتظارها من أهلها. ودخلت إلى غرفتها لتقرأها. كانت جميعها معنونة باسم الفتاة الأخرى حسب طلبها. فتحت رسالة أبيها، فهو الشخص الوحيد الذي تفضي إليه بمكنونات قلبها بدون وجل أو إحراج، لأنه متفهم.

واغرورقت عيناها بالدموع بعد انتهائها من القراءة.. فلا شيء قد يدهشه، وفكرة تنكرها باسم فتاة أخرى أعجبته. وعبر عن سروره ورجاها أن تراسله قدر الإمكان لتبلغه بما تفعل وبما يحصل في مزرعة «الأوز البري»، وأنهى رسالته ببعض الأقاويل وبقبلاته وحبه.

أما أمها فكان لها وجهة نظر مختلفة إذ لم تفهم دوافع ابنتها أو وجود إنسان بهذه السذاجة ليرضى بمشروع كهذا. وتابعت قولها بأنها تشعر بالامتنان لوجود والدة الشاب، وتمنت أن تكون الحامية الجيدة لها. وهنا لم تتمالك روكسان نفسها من الضحك.

وجاء دور رسالة الجدة كاتي، التي كانت كاتبتها من حيث الأفكار إذ قالت إنها تحسد حفيدتها على الفرصة التي أتاحت لها رؤية المزارع الواسعة وكيفية إدارتها.. وتمنت لها وقتاً سعيداً بين جولات جمع القطيع وتنظيف الجياد.. ثم تساءلت عن شكل ذلك الخطيب.. أهو أشقر أم أسمر، أهو وسيم أم قبيح،

طويل أم قصير؟.. سمين أم نحيل؟ ثم تابعت: لا تنسي أن تردي على أسئلتي إذ يصعب عليّ تصور ذلك الذي أقنعك بالمشاركة في مؤامرة رهيبة كهذه بلمح البصر.

بارك الله الثلاثة.. ووضعت الرسائل في حقيبتها مبتسمة. ثم خرجت من الغرفة سعيدة لترى ما يخبئه لها نيل من مهام. ووجدته يقلب بريده، فخفق قلبها وأحست بالغضب.. فسألته:

- هل هناك المزيد من الفواتير؟

- لا.

أدهشها أنه رمى لها برسالة لتقرأها.. ووجدت أنها من جورج الرجل الذي كان يعمل معهم في المزرعة والذي سافر إلى المدينة ليتعالج وفي هذه الرسالة يقول لمخدومه:

- لن أرجع إلى العمل فقد ساءت آلام المعدة ويقول الطبيب إنه سيشق بطني بالسكين.

حاولت روكسان السيطرة على نفسها من الضحك.

- إذن ستتابع عملنا كما كنا.

- طبعاً.

- مسكين جورج.. أعتقد أنه يفضّل أن يكون هنا عوضاً عن البقاء في المدينة «ليشقوا له بطنه بسكين»!

فارتسمت ابتسامة باهتة على شفتيه:

- أجل.. أراهن على هذا.. أنا آسف عليه.. ولكننا سنحتاج إليه خاصة عند بدء الجز..

فحدقت إليه:

- وماذا سيحدث إن قررت وأليكس العيش في المدينة؟

- قد أفلس.

www.liilas.com

ذلك المساء، استلقت روكسان في فراشها، ثم أشارت إلى فلوفي لتصعد إلى السرير.. وبدأت تخاطبها:

- هكذا أفضل.. ستصغين إلي الآن وأنا أعرف أنك لن تقاطعيني أو تتفوهي بملاحظات لاذعة فيما بعد.. أولاً.. لماذا قلت ما قلته لنيل بالأمس؟ لماذا كنت غبية وألزمت نفسي بالبقاء أسابيع أو أشهراً؟ لا أعرف الرد على هذه الأسئلة.. فليس السبب وقوعي في حب أليكس. في البداية قلت لنفسي إنني أريد مساعدته، لأن الفكرة راقت لي. أما الآن فإنه يعجبني.. ولكنني لم أكن أتوقع أن تطول إقامتي هنا.

حركت إصبعها في وجه الكلبة المحدقة إليها بصمت:

- سيمضي وقت طويل قبل تسديد الديون. لقد تعقد كل شيء وبت أجد فكرة الإقامة مدة أطول أمراً مثيراً للقلق.. فلماذا؟

ولم تعط فلوفي رداً على هذا السؤال كذلك.. ومدت روكسان يدها فأطفأت النور ثم استلقت في الظلام، تقلب الأمور في عقلها.. وأخيراً غفت.

لم يستطع نيل شخصياً أن يحدد الأمر الذي أزعجه فقد وجد نفسه متردداً بشكل غريب في إلقاء الأوامر على روكسان كما كان يفعل.. فبعد حديثهما واتفاقهما في الكاراج، أصبح لا يشك في قبولها بالعمل المفروض عليها.. واعتقد أنها تحب أليكس كثيراً حتى تقبل هذه المشقات كلها. ولكن ما يحيره طريقة تصرفها إذ يراها مستمتعة بالعمل كما لا يرى منها انزعاجاً أو ضيقاً بل هي دائماً هادئة مبتسمة ابتسامة يصعب عليه معها عدم التجاوب.

بعد خبر مرض جورج، وضع على كاهل أليكس مسؤولية حلب الأبقار ورعاية العجول، فقام أليكس بعمله على أتم وجه.. كان يبذل جهده ولكنه بطريقة ما لم يكن بارعاً. وبدا أن مجرد وجوده يثير الحيوانات.. وكان عليه أن يستجيب لضحكات روكسان وهو يخبرها بهذا.. ثم بدأ الأربعة يضحكون عندما أخبرهم أن أحد العجول لم يحب الرجل الذي يرعى أمه، ويسلبه حليبها.

والتفتت روكسان إلى نيل:

- ألا أستطيع تعلم حلب الأبقار؟ ربما لدي تلك الموهبة التي يفتقر إليها أليكس.

فردت السيدة هايدواي:

- لا أعتقد هذا!

فردت روكسان:

- ولكنك تقومين بهذا العمل. ولقد رأيتك.. فإن كان باستطاعتك حلب الأبقار، فلماذا لا أستطيع أنا؟

- لا يبدو الأمر لائقاً.

فصاح نيل بمرح:

- هراء! إنها فكرة رائعة.. إذ يجب على النساء إجادة حلب الأبقار.. سأعلمك..

فسألته أمه:

- ولماذا لا يعلّمها أليكس؟

- إن كان لا يستطيع هو ذلك فكيف يعلمها بحق الله.

هزت السيدة هايدواي رأسها.. إنه على حق كالعادة.

وهكذا، لحقت روكسان به في اليوم التالي إلى حظيرة

www.liilas.com

الأبقار.. وهناك جمعت الدلاء والخرق النظيفة، وأطلق سراح عجلين جائعين.. وعرفها إلى الأبقار الثلاثة التي تحتاج للرعاية. راح نيل يراقبها تمد يدها إلى ما بين عيني البقرة لتمسح الوبر عنهما.. ثم سمعها تقول بصوت لطيف:

ـ أنا روكسان المزارعة الجديدة وسأتعلم كيف أعنى بك، لذا تصرفي معي بلباقة.. أرجوك ألا ترفسي الدلو بعد ملئه.. أنا أعرف أنك طيبة، فأنت جميلة حقاً.. لقد راقبتك وأنت في المرعى..

وضع نيل يده على فمه واستدار، وعندما تجرأ على إعادة النظر كانت روكسان تحدث البقرة الثالثة التي راحت تشم ذراعها.. فقال لها:

ـ إن انتهيت أتابع الدرس.

ونظرت إليه بحدة:

ـ وكم سأنال لقاء هذا العمل؟

فجأة غابت كل مشاعر المودة التي أحس بها نحوها. فرد باقتضاب:

ـ سأفكر في الأمر.

أثبتت أنها تلميذة نجيبة إذ لم تخسر قطرة حليب واحدة، وما إن مضى الأسبوع حتى أتقنت حلب الأبقار الذي أصبح عملاً إضافياً لها وتركها نيل لعملها الجديد، فأصبحت تذهب برفقة فلوفي في الصباح، ثم تعود لتقبض أجرتها بعد الظهر.

وجدها هاري على هذه الحال، بعد ظهر أحد الأيام، حيث كان يزور مريضاً يبعد عشرين ميلاً عن المكان، فقرر الزيارة، لتناول فنجان شاي، ولمقابلة الفتاة التي يفكر فيها كثيراً.

استقبلته السيدة هايدواي بالترحاب، واعتذرت منه لأنها وحدها في المنزل في هذا الوقت من النهار فقد خرج ابناها لجمع الأغنام وأدخلت روكسان الأبقار من المرعى وانشغلت بها. ففغر هاري فمه، وقال بذهول:

ـ أتقصدين أنها تحلبها؟

ـ أجل.. إن شئت اذهب وانظر إن كانت انتهت من ذاك العمل.. فأنا أعرف أنها لا ترفض فنجان شاي أبداً.

كانت تغني أغنية ريفية جميلة سمعتها في مكان ما من الريف، وكان صوتها يعلو وينخفض مع الأنغام.. فقال هاري بصوت خفيف:

ـ أوه يا روكسان!

فأدارت رأسها نحوه تسنده إلى بطن البقرة لتنظر إليه وقالت عندما لاحظت العجب على وجهه:

ـ البقرات يحببن هذه الأغنية.

ـ لا أشك في هذا، وأنا أيضاً أحبها. ألن تستمري في الغناء؟

ـ لا.. لقد أفسدت الجو السحري.. ماذا تفعل هنا؟

ـ في هذه اللحظات أنظر إلى ما لم أكن لأصدق أنه ممكن الحدوث. من علمك هذا؟ نيل؟

ـ حسناً.. بما أن جورج غير قادر على العودة إلى العمل فقد عرضت عليه أن أتعلم، فلا يعرف المرء متى يحتاج إلى مثل هذه الخبرة.

ـ هذا صحيح..

جلس على كومة قش يراقبها وهي تقود الأبقار إلى الحظيرة

www.liilas.com

وهز رأسه بأسى وحزن وقد عادت لتبدأ التنظيف:

- ذهبت مواهبك وعلومك سدى.

ضحكت:

- لا.. لم تذهب سدى.. فهل أنسى ما تعلمته في الجامعة وما تدربت عليه بسهولة؟ إن ما أقوم به أمور ثانوية مؤقتة.

- ولكنني أراك مستمتعة بها.

- هذا صحيح أنا مستمتعة بها حقاً.

- ولكن لماذا هذا الغناء الريفي؟

- أسلي نفسي بالغناء وبما أنه لا يتبعني أحد إلى هذه الحظيرة أطلق لنزواتي عنانها.

- آه يا روكسان!

فقاطعته:

- هل أرسلتك السيدة إلى هنا لأحتسي الشاي؟ حسناً هيا بنا.

التقيا بالأخوين وهما يقتربان من المنزل، فابتسم أليكس لهما أما نيل فعبس، ولكنه أخفى رأسه باقتضاب وحيا هاري.

سأله أليكس:

- هل في الجوار مريض؟

أخبره هاري رأيه الصريح بالمرأة التي اتصلت به بدون داع. وكان يكمل رأيه بالمرضى من النساء وهم يدخلون باب المطبخ، فسارعت السيدة هايدواي، التي كانت تسمع صوته المرتفع، إلى الإمساك به ودفعه ضاحكة نحو غرفة الاستقبال:

- اجلس هناك واسترح.. الشاي جاهز. إن لم يكن لديك أمر طارىء فلماذا لا تبقى معنا للعشاء؟

- فكرة جيدة.. سأتصل بالعيادة لأرى ماذا عندي. هل تسمحين؟

وسمع الجميع صوته يدوي في المنزل. وبدا أن أحد المرضى كان يسأل عنه فشكر سكرتيرته، وأقفل الخط ليطلب رقماً آخر.

- لا بأس بك اليوم. أزورك غداً.

والتقت عينا روكسان الضاحكتين بعيني الطبيب المقبل إليهم وعلمت أنهما لو كانا بمفردهما لمضى في وصف حالة مريضه بالتفصيل. لاحظ نيل المرح على وجهها، وشاهد هاري يغمزها فتساءل من جديد ماذا بينهما من أشياء مشتركة؟ جلس هاري يقول بارتياح:

- سأكون سعيداً ببقائي معكم للعشاء.. ستتصل بي السكرتيرة في الحالات الطارئة.

استرخت أساريره بعد الوجبة اللذيذة، وجلس أمام النار يقص أخباراً مسلية عن أشخاص قابلهم في فترة تمرينه في مستشفى الجامعة ثم في المستشفى الكبيرة في المدينة. ولم تكن السيدة هايدواي أو روكسان أمام النار، إذ انشغلت كلتاهما بحياكة كنزة صوفية لأليكس ونظر نيل إلى عيني أمه المشرقتين بسبب منظر الفتاة فتنهد. إن لروكسان وجهين بدون شك أو شخصيتين مزدوجتين. وجه يحب الحياة المنزلية والمرح.. ووجه آخر يحب الإسراف والتهور ولكن هذين الوجهين لا يحملان العاطفة لأخيه. إنها ودود دائماً معه ولكنه لم يسمعها تدعوه بكلمة تحبب ولم يرها تلمسه بحنان.

التفت هاري إلى روكسان:

- هل تعجبك قصصي؟.. ماذا تحبكين؟
- كنزة لأليكس.
- وهل تحبكين لي كنزة عندما تنتهين من هذه؟
نظرت بطرف عينها إلى نيل، وقالت بعذوبة:
- بالطبع شرط أن تشتري الصوف اللازم.. فاعلم أنني لا أملك المال الكافي.

* * *

٩ - الأفعى

عندما بدأ موسم جز الصوف، انهمك الجميع بالعمل.. فقسمت روكسان وقتها بين المطبخ والمراعي، تساعد السيدة هايدواي بتحضير وجبات الطعام للرجال ثم تساعد في جمع الخراف.. وكان ذلك بالنسبة لها تجربة جديدة، فقد شغفت بهذه الأيام التي كانت تقضيها خارج المنزل حيث لا يهم كيف يبدو مظهرها. كما شغفت الكلبة بهذه الفترة وقد كادت مرة تثير الشغب عندما دخل إلى رأسها الصغير فكرة مساعدة كلاب الرعاة في جمع الخراف، فعلقت وسط القطيع، ولم تستطع روكسان استدعاءها لكثرة ما ضحكت.. وعندما وصل نيل ليرى سبب الاضطراب ذهل لمرأى الكلبة الصغيرة منتصبة الأذنين رافعة الذنب تنبح في أعقاب كبش ضخم يزيدها حجماً بخمس مرات. فمسحت روكسان عينيها من دموع الضحك وقالت لنيل معتذرة:
- هي تقوده على الأقل في الاتجاه الصحيح.
وحدقت إلى وجهه بدهشة لأنها رأت ابتسامة تسلية خفيفة.. ثم قال:
- الأفضل أن تستدعيها.. فليس لديها الفكرة الكافية عما ينتظرها.

www.liilas.com

وتأكدت من صدق قوله عندما ارتدّ الكبش على عقبيه وعاد من حيث جاء.

أمضت يوماً آخر في سقيفة الجزّ تراقب حركات الرجال السريعة وهم يجزون الخراف. قال أليكس لروكسان وهما يتمشيان بعد عمل النهار:

- لأخي قلب من ذهب تحت ذلك المنظر العابس.

- لن يعجبه هذا القول لأنه يحب أن يعتقد نفسه الإنسان القاسي العنيد.

- ألا تربنه قاسياً وعنيداً؟

- لا.

ولم تزده إيضاحاً.. كانت تفكر في طريقته في معاملة أمه التي يحبها كثيراً، وفي التفاهم القائم بينهما. نعم أليكس مولع بها، ولكنه غير مشارك في ذلك التفاهم.

أما أوضاع المياه فكانت تسوء حتى اضطرت السيدة هايدواي إلى الطلب من روكسان عدم الإسراف بالماء أثناء الاستحمام.

كما لاحظت أشياء أخرى: تغير الطقس وكثُرت ولادة النعاج الصغيرة وقد حمل إليها خروفان فقدا والدتهما. وكان عليها إطعامهما بالزجاجات فتعلقت بهما كثيراً. وفي أحد الأيام ابتسم نيل لمنظرها وهي تسير على الطريق برفقة كلبتها والخروفين الصغيرين.

شاهدت أول أفعى في تلك المنطقة يوماً عندما ذهبت لتحضر الأبقار من المرعى. وما إن سمعتها الأفعى مقبلة حتى انسلت إلى جذع شجرة وانتصبت هناك... وبما أنها كانت معتادة على

رؤية مثيلاتها في حديقة الحيوانات ومختبرات الجامعة، لم تفزع ونسيت ذكرها وقت العشاء تلك الليلة.

ولم تتذكر روكسان الأفعى إلا بعد يومين وهي تحلب الأبقار.. فقد كانت الأبقار قلقة خائفة، وفيما كانت تمد يدها إلى الدلو لاحظت أن الكلبة تقف مكشرة عن أنيابها. وهذا أمر غير عادي لفلوفي، فنظرت بسرعة إلى ما كانت تحدق إليه الكلبة وشعرت بقشعريرة تسري في جسمها كله. فقد كانت الأفعى ممددة بينهما وبين الباب، الطريق الوحيد للهرب. وكان رأس الأفعى مرتفعاً وشعاع الشمس المتسرب من بين الشقوق منصباً على رأسها الأسود وعلى ظهرها.

زمجرت الكلبة فتحركت يد روكسان ببطء إلى رأس فلوفي، ثم أمسكت بقوة بطوقها وشدتها فصرخت الكلبة من الألم وهي غير المعتادة هذه المعاملة من سيدتها التي خشيت أن تقرر القفز على هذا الشيء المتحرك على الأرض. وتساءلت عما تفعله أو أين تذهب. وتقدمت الأفعى إلى الأمام، فرفست صغرى البقرات الأرض بعنف، وأفلتت من عقالها ثم راحت تعدو إلى الخارج.

جمعت روكسان أعصابها وبدأت بتسلق الخشب الخشن ثم جلست فوق إحدى دعائم السقف بعدما خدشت بشرتها. حاولت وهي تحضن فلوفي أن تتذكر ما تعلمته عن الأفاعي وعاداتها. إنها أفعى سوداء غير سريعة أو متوحشة كالأفاعي البنية اللون.. وفيما كانت تفكر وقع ظل أمامها من فتحة الباب، وصاح صوت غاضب:

- إحدى الأبقار منطلقة وحدها.. لماذا تركتها تهرب هكذا؟

فردت على نيل ببرود:

- لدي أسبابي.

خطا إلى الداخل، ولكنه توقف شاهقاً بسبب المنظر أمامه. وصاح:

- روكسان؟ هل أنت بخير؟

ونظرت إليه بسرعة، فهذه المرة الأولى التي يناديها باسمها.

- أجل.. طبعاً.. ولكن هلاّ نحيتها من الطريق قبل أن أنزل؟

وصاحت مذعورة عندما شاهدته يتحرك:

- لا.. لا تدخل.

- أريد ما أضربها به.

ثم أسرع إلى الخارج فلما لاحظت الأفعى أن الطريق خال أمامها سارعت إلى الخروج.. ولكن نيل كان بانتظارها بمجرفة ضخمة، ورأت روكسان المذبحة باهتمام. وعندما أصبح الشكل الطويل الأسود الشرير اللامع ممدداً بلا حراك.. بدأت النزول عن العمود، ولكن يدين قويتين أمسكتا بها فجأة وأصبحت مع الكلبة على الأرض. نظرت إلى وجه نيل لبرهة، ولاحظت شحوبه، والتوتر حول فمه.

سألها فجأة وهو يتركها:

- هل لسعتك الأفعى؟

- لا.. لقد حذرتني فلوفي منها.. سأحتفظ بالمجرفة هنا حتى إذا ما ظهرت حية أخرى تدبرت أمرها بدون اللجوء إلى دعائم السقيفة.

- على ساقيك خدوش دامية.

- السبب تسلق الدعامة.

فنظر إليها بحدة وقال بنرفزة:

- أرجوك.. لا تمزحي بهذه الأمور.

ونظر إلى الخارج إلى حيث كانت فلوفي تشم الدخيل الممدد على الأرض.. فقالت له روكسان:

- لا أمزح.. فلقد سبق وأن شاهدت مثيلاتها.. وقتلتها.

لم يصدق قولها:

- أين؟

- في منزلنا.

- ولكن الأفاعي لا تجوب شوارع المدن.

- لا.. أيها السخيف.. منزلنا في الجبل.

فرد عليها بحدة:

- ولكنك تسكنين في سيدني.

فرفعت رأسها إليه غير قادرة على فهم تلك النبرة المتوحشة في صوته، وبدا لها مختلفاً. وردت عليه بخفة:

- أوه.. أقصد منزلنا الآخر... من الأفضل غسل الخدوش ووضع مرهم مضاد للالتهاب عليها. أحمد الله لأن البقرة لم ترفس الدلو المليء بالحليب أثناء فرارها.

وابتسمت له، ثم أردفت:

- أشكرك لأنك أنقذتني فلولاك لبقيت فوق العمود النهار كله.

- ما كنت لأعرف لولا فرار البقرة.

كان في صوته انزعاج وقلق وغضب، فجأة تناهى إليهما صوت اليكس:

www.liilas.com

- هاي! ثمة أفعى ميتة هنا!

فخرج نيل إلى الشمس لينظر إلى ما جنته يداه وقال ببرود:

- ولماذا الإعلان عن شيء واضح؟ لقد قتلتها. طولها يزيد عن المتر ونصف، ألا ترى هذا يا أليكس؟

فالتفت أليكس إلى ناحية روكسان، وكأن الفكرة صدمته:

- روكسان كانت معك في الداخل؟ آه.. هل أنت بخير؟

وأمسك بذراعها، فحاولت انتزاعها منه ولكنها تذكرت أن من حق كل رجل إبداء الإنزعاج عندما يهدد الخطر محبوبته، فتركت يده تتصاعد من ذراعها إلى كتفها، وهو يحدق إليها ويقول لاهثاً:

- كادت تلسعك.

- ولكنها لم تلسعني.

أحست بالتوتر يسود الجو، ولم تفهم السبب، ولم يعجبها كذلك. فأضافت وهي تعلم أن ما ستقوله سيزعج نيل.

- ليتني كنت أملك مزماراً لكنت جلست أتربع على الأرض، أراقب الأفعى تتحرك بتناغم مع عزفي.

ولم يخب ظنها، فقد أصدر نيل همهمة استنكار، أما أليكس فضحك وزال التوتر من الجو. عادت إلى المنزل وهناك وجدت السيدة هايدواي عالمة بما جرى وقد سارعت إليها بماء مغلي ورزمة ضخمة من القطن. تركتها روكسان تعنى بالخدوش، فهذا ما يسعد المرأة.. قالت السيدة هايدواي متمتمة:

- صدمت بدون شك يا عزيزتي.. سأحضر لك الشاي، ولكن عليك الاستلقاء لتستريحي برهة..

فقاطعتها روكسان:

- لا.. أرجوك! لا أشعر بالصدمة أو الدهشة إذ شاهدت الأفاعي من قبل بين الشجيرات الشائكة..

- كان ذلك قبل لقائك بأليكس؟

- أجل.. فبعد لقائي به انشغلت به.

فقال نيل معلقاً:

- هذا ما اعتقدناه. سأحضر العصير يا أمي.. فالمرء يظمأ بسبب العمل خارجاً.

أحست الأم بالسرور لأن الموضوع تغير:

- أجل.. لقد اشتدت حرارة الجو.

وفكرت: «لماذا لا يستطيع نسيان ما حدث بدل إثارة الموضوع دائماً؟ لو كانت مكان روكسان لغضبت أشد الغضب..» تنهدت شاكرة الله لأن روكسان ليست كذلك، وإلا لثار شجار وجدال بين الجميع بدل هذا المرح الذي تخلقه هذه الفتاة..

قالت: «هاك.. أظن أن ساقك ستكون على ما يرام هكذا».

فنظرت روكسان إلى الضمادة التي تلف ساقها بطريقة خاطئة وهزت رأسها.

بعد يومين، تلقت السيدة هايدواي مخابرة من البلدة أثارت سرورها، فصاحت وهي تدخل إلى غرفة الطعام حيث كان الثلاثة يرتشفون القهوة:

- حفلة مفاجئة.. الليلة! ستعلن روزالي كوبر خطوبتها الليلة ونحن جميعاً مدعوون.. لقد وعدت بصنع بعض «الكيك»...

www.liilas.com

وراحت تدور في الغرفة بسعادة فنظر إليها نيل والبسمة في عينيه. واعتبرت روكسان نفسها مدعوة بالطبع، فلقد سمعت عن الفتاة وتعرفت إلى أمها. ولأول مرة ظهر عليها الارتباك.. فقد رفعت يدها إلى رأسها وقطبت قائلة:

ـ كنت أود لو أقص شعري وأصففه قبل زيارة أحد.

فقالت لها السيدة هايدواي:

ـ ولماذا لا تذهبين إلى البلدة؟ بإمكان نيل الاستغناء عنك مرة.

قالت كلماتها بطريقة شعر معها ابنها الأكبر بأن لا مناص له عن القبول. ولكنه تأخر في الرد، فنظر الجميع إليه وقالت أمه بحدة:

ـ حسناً؟

فرد ببطء:

ـ عليّ أن أذهب أنا أيضاً إلى البلدة بعد الغداء، فستصل بعض الأدوات بالقطار وأود إحضارها اليوم. سأصحب روكسان على أن نلحقا بنا لنلتقي في وقت لاحق.

أزعجت الفكرة أليكس الذي قال:

ـ وماذا سأستخدم للتنقل؟

ـ سيارة روكسان.

فأسرعت روكسان تقول:

ـ لا بأس بذلك. فستفيد الرحلة السيارة التي لم أستخدمها كثيراً مؤخراً، وهذا سيوفر علينا الوقت أيضاً.

ونظرت إلى أليكس فلاحظت نظرة متمردة في وجهه.. فسألته بعذوبة:

ـ ألديك مانع؟

ولم يستطع سوى الموافقة.. ولكنه أردف:

ـ لماذا لا أذهب برفقتها وأقوم أنا نيابة عنك باستلام الأغراض في المحطة؟

فأجابه أخاه:

ـ لأن عليّ القيام بأشغال أخرى هناك كالاتصال بالمصرف، وهذا ما لن تفعله أنت.

ـ ولِمَ لا نذهب جميعاً؟

ـ لأن على أمي خبز الكعكة فهي لن تجهز إلا في وقت متأخر.. ماذا أصابك يا أليكس؟

فتمتم أليكس:

ـ أنت تختلق دوماً الأعذار لتباعد بيننا إذ تقول دائماً افعل هذا أليكس، اذهب إلى هناك.. افعلي ذلك روكسان واذهبي إلى مكان آخر..

ـ كلام سخيف! فأنت تعرف رأيي بخطيبتك، وإن كان من المناسب وضع أحدكما هنا والآخر هناك لأن ديونك ستسدّد بهذه الطريقة بسرعة أكبر.

ساد الصمت بين نيل وروكسان وقتاً طويلاً في السيارة. ولم تستطع التفكير في ما تقوله لرفيقها، ولم تكن ترغب في أن يبدأ هو الكلام عن أليكس والزواج والديون أو عن أي شيء آخر من هذا القبيل. كما أنه بدا مركزاً اهتمامه على الطريق.

جاءها سؤاله على حين غرّة:

ـ أين تقيمون في الجبل؟

ـ نحو الشرق.

www.liilas.com

- اعتقدتك تسكنين المدينة.

وعندما لم تجب طال الصمت. ثم سألها:

- هل لك شقيق أو شقيقة؟

- لا.. أنا وحيدة والدتي.

- هذا يفسر الأمور.

- يفسر ماذا؟

- يفسر اعتيادك على الدلال.

فضحكت:

- أوه يا نيل.. هل تظنني مدللة حقاً؟

فرد يائساً:

- لا أدري حقاً ما أظن.

- مسرورة أنا لأنك حائر بأمري.

وأخفت ابتسامتها في رأس كلبتها..

قال بعد بضعة أميال:

- لا نعرف الكثير عنك.

- وهل يهمك الماضي والخلفيات كثيراً؟ أفضّل أن أعجبك لشخصي فقط.

- من هي مثلك..

وعلقت الكلمات في الهواء.. فالتفتت إليه:

- انظر إلي.. ألا تراني أقوم بالمستحيل لإصلاح أغلاط الماضي.. ألا يمكنك ترك الأمر على هذه الحال؟ فلنعقد هدنة يا نيل.. اتركني، واترك أخاك، لنبني مستقبلنا على طريقتنا. ما إن نسدّد الديون حتى يولّي ما يقلقك وتأكد أنه لن يكون هناك المزيد.

- هل تعلمت الدرس؟

- إن أردت هذا، نعم بكل تأكيد.

ونظر إليها فلاحظ الشرر يقدح من عينيها. صاحت به وقد قفزت السيارة إلى الأمام:

- ابطيء سيرك بحق الله! لا أريد أن أكون مريضة أخرى عند هاري نتيجة غلطة منك!

هاري! ما أسهل ما تنطق اسمه مع أنها لم تلتق به إلا مرات قليلة، لم يخفف سرعته إلا عند وصولهما إلى ضواحي البلدة. وعندما توقف أمام المزين أسندت روكسان ظهرها إلى مقعدها.. وقالت «واو!» فرد معتذراً:

- آسف.. ولكنها طريقتي في القيادة.. ولا تقلقي فلن يسمح أليكس لك بتكرار هذا.

وفتحت الباب، ثم نظرت إلى كلبتها.

- هل تعترض إن تركت فلوفي معك؟ فلا أستطيع إدخالها معي.

- إنها أشد حاجة إلى أن تقص شعرها منك أنت إنما لا بأس اتركيها.

وأدهشها قبوله بطلبها بدون نقاش.. تابع قوله:

- أراك في المقهى فهناك ستتناول وجبة سريعة. فهل تناسبك الساعة الخامسة؟

هزت رأسها موافقة، وأقفلت الباب وراءها.. نظر نيل إلى الكلبة البيضاء وقال ببطء وهو يقلع بالسيارة عن المفرق:

www.liilas.com

ـ أنت لا تدرين حظك الكبير يا فلوفي إذ لا تقلقين على شيء ولا تشغل بالك الشكوك والهواجس!

* * *

١٠ ـ لم تندم

يجب أن ينتهي هذا كله سريعاً لأنه أفضل لها.. أعلنت هذا أمام أليكس صبيحة أحد الأيام. فصمت دقائق، وحاول جاهداً ولكنه لم يجد سبباً يقنعها به بالبقاء.

أردفت روكسان:

ـ تكاد الديون تنتهي.. وقد سبق أن قلت لك إنني سأرحل حالما تُسدَّ ديونك.

وبدا البؤس في صوته:

ـ أعرف هذا.. فلا يمكنك البقاء إلى ما لا نهاية. فماذا تقترحين أن تفعل؟

ـ أظن أن أفضل طريقة هي بعودتي إلى بلدي ومن هناك أكتب رسالة لك ولأمك. هي طريقة جبانة، ولكنني لن أتمكن من مواجهتها وجهاً لوجه.

وفتح فمه ليقول لها ما قد يغير فكرها، فحدقت إليه بطريقة حادة جعلته يقفل فمه ويعود إلى النظر أمامه فقالت:

ـ هكذا أفضل.. كدت تصطدم بالشجرة الأخيرة.

وران الصمت حتى وصلا إلى البلدة، فأخرجت روكسان لائحة المشتريات، واتجهت إلى باب متجر البقال. وهي تفكر

www.liilas.com

في أنها قد أصابت الرأي في قولها.

غادرا البلدة مساء، ولم يسرع أليكس في طريق العودة. كان لديه ما يقوله لها. إن الشكر فقط لن يفيد.. وبقي يحدق إلى الفتاة.. كم أصبح يعرف هذا الوجه. ولمعان عينيها وطريقتها في إبراز شفتيها إلى الأمام عندما تشجعه أو تزعجه، أو تحاول إخفاء انزعاجها بالصبر والمرح. وتنهد، لقد كانت الحياة مرحة أمامه مؤخراً. وستعود للتعقيد ثانية، فلن تعجب الفكرة أمه التي ستتضايق وتحتار. فمن أين سيأتي بفتاة كروكسان ليقدمها إلى أمه زوجة صالحة؟

ومضت أضواء المنزل ترحب بهما، فقال أليكس:

ـ هل لدينا زوار؟

ـ ولكن لا سيارات أمام المنزل.

ـ فلماذا أضيء المكان هكذا؟ هل وقع مكروه؟

وصمت عند خروج نيل بسرعة من الباب. سألهما بحدة وروكسان تفتح الباب لتنزل:

ـ أين كنتما بالله عليكما؟ لقد ذهبتما للتسوق منذ الصباح؟

سألته والذعر في صوتها:

ـ هل حدث مكروه؟

ـ وصلتنا برقية من شقيقة أمي التي أصيبت بنوبة قلبية. وعلى أمي الذهاب إليها بسرعة ولكنها لم تقبل الذهاب حتى تصلا.. لقد انتظرناكما وقت الغداء وبعده.. فماذا كنتما تفعلان؟

فرد أليكس ببساطة:

ـ كنا نتفرج على محلات البلدة، وكيف لنا أن نعرف ما

جرى؟

ـ اتصلت بالمحلات وبالمصرف وبمركز البريد.. لقد مررتما بتلك الأماكن ولكن أحداً لم يعرف مكانكما.

تجاوزته روكسان إلى المنزل حيث وجدت السيدة هايدواي في غرفة نومها، وحقيبتها مفتوحة على سريرها وعيناها حمراوان، فقالت الفتاة:

ـ آسفة.. ما كان علينا التأخر. سمعنا الخبر للتو!

ـ أعلم هذا.. لا بأس يا عزيزتي.. وصلتني رسالة منذ يومين منها وكانت بخير فقد أرادت أن تعرف إن كنا سنقضي معها عيد الميلاد. يجب أن أذهب إليها، إنها شقيقتي الوحيدة، ولا أريد أن أصل إليها متأخرة.

ـ أين تقيم؟

ـ تقيم على الساحل، وهو بعيد من هنا. ثمة قطار في الصباح الباكر، ولكنه يحط أولاً في المدينة..

ـ ولكن ألا يمكنك الذهاب بالسيارة رأساً إلى هناك؟

فهزت السيدة رأسها، فالتفتت روكسان إلى نيل:

ـ نيل، أليس بمقدورك إيصال أمك بالسيارة؟

ـ لقد اقترحت هذا عليها، ولكنها رفضت الانطلاق قبل وصولكما.

فقالت السيدة هايدواي مترددة:

ـ لا أستطيع ترك كل شيء هكذا فجأة.

فقاطعتها روكسان: «لماذا؟»

وخفق قلبها بسرعة، ها هو ما قد يؤخر رحيلها هذا الأسبوع، فهم بحاجة إليها هنا.. وتابعت قولها:

www.liilas.com

ـ أنا هنا.. وأستطيع القيام بما هو ضروري.

فقال نيل بحدة:

ـ قلت لها ذلك وأكدت أن عليها ألا تقلق فأنت تعرفين نظام المنزل وسيحل أليكس محلك إذ لن تضره بعض المسؤوليات الإضافية.

قالت الأم معترضة:

ـ وهل أترك روكسان وحدها..

فقاطعتها روكسان:

ـ أف! لِمَ القلق؟ لا تقلقي.. نيل رب الأسرة، وعليك تنفيذ أوامره ثم لا حاجة بك للعودة سريعاً.. فماذا ستفعلين؟

كافأتها السيدة هايدواي بابتسامة حارة:

ـ آه يا روكسان! ما أسعدني بوجودك في المزرعة. سأنطلق بالسيارة إن صحبني نيل.

ـ ستكون الطريق هادئة ليلاً وستصل أسرع من القطار. فلا تقلقي سأقلك إلى منزل شقيقتك بسلام.

فقالت أمه محتجة:

ـ ولكنك ستعود وحدك، والمسافة بعيدة إذ تزيد عن أربعمئة ميل.

فقال أليكس:

ـ سبق أن قام بهذه الرحلة.. هل أستطيع فعل شيء؟

فقالت روكسان:

ـ سأوضب حقيبة أمك، أما أنت فأعد الشاي وحضّر بعض السندويشات.

أصرت السيدة هايدواي على أن يمضي نيل ليلته عند خالته،

وعندما اعترض ضربت الأرض بقدمها وصاحت به «نيل!» فقاطعتهما روكسان بصوت منخفض:

ـ لا حاجة بك إلى العجلة فأمك بحاجة إليك هناك فقد يقع ما لا تحمد عقباه.

ـ سأعود في أول فرصة سانحة.

كان الليل قد انتصف قبل أن يغادرا المنزل. فوقف أليكس مع روكسان يراقبان الضوء الخلفي الأحمر يتوارى بين الأشجار.

تغير نظام المنزل في اليومين التاليين فبدا لها مهجوراً. عليها إضرام النار في المدفأة الكبيرة قبل أن تحضر الأبقار من الزريبة إلى سقيفة الحلب، وعليها بعد حلبها إطعام الدجاج وبعض الأمور الأخرى. أما وجبات الطعام فاكتشف أليكس أن روكسان طباخة ماهرة كأمه تقريباً، وعندما ذكر هذا لها قالت:

ـ إن وجدت الأمر غير مناسب جعلتك خاضعاً لنظام غذائي يفيد المرضى.

عندما لم تصلهم أنباء من الخالة أملا بقاءها على قيد الحياة. ولكن أليكس علق على الأمر:

ـ سيكون موتها صدمة لأمي. هل يشفى الناس عادة من النوبات القلبية؟

ـ كثيراً.. أما زال زوجها حياً؟

ـ لقد مات عندما كانت ابنتهما الصغرى في المدرسة.. أفكر في تصليح الخزان في مؤخرة المنزل، فهو فارغ. إنه بحاجة إلى تنظيف. هل تعرفين شيئاً عن التلحيم بالأوكسجين؟

ـ لا.. آسفة، لا أعرف شيئاً عنه.

فضحك:

www.liilas.com

ـ لربما استخدمته يوماً ما. إذ أراك تعرفين كل شيء.

وكبحت روكسان رغبتها في ضربه بشيء ما.. فهي لا تريد أن تصبح ودودة أكثر من اللازم معه، وإلا أساء فهم قصدها وظنها قانعة بفكرة الخطوبة.

اليوم هو يوم رائع.. لا يمكن للجو أن يكون أجمل من هذا... إلا إذا أمطرت السماء. نظرت روكسان إلى المراعي البنية العطشى وعرفت ما تعنيه هذه السماء الصافية للإنسان والحيوان والأرض. ففي المدة التي قضتها هنا لم تسقط قطرة ماء واحدة قد ترطب هذه الأملاك أو أملاك المنطقة المجاورة.

قالت روكسان لأليكس بعد عودتها من زيارة السد القريب من المنزل.

ـ يجب أن تمطر قريباً.. ماذا يحدث إن لم تمطر؟

ـ سيضطر نيل إلى بيع القطيع أو إلى إيجاد مرعى في منطقة أخرى. وهذا يعني نقلها ودفع تكاليف رعايتها.

ـ كل هذا وعلى رأسه الديون التي كدستها عليه!

فنظر إليها بدهشة:

ـ يذهلني اهتمامك بمشاعره أكثر من أي شخص آخر.

نظرت إلى عينيه بغضب:

ـ ماذا تعني؟ هل تلمح إلى شيء؟

ـ لا روكسان.. أنا لا ألمح إلى شيء.. فما كنت تعرفين نيل عندما قبلت بما طلبته منك.

وأبعد بسرعة طعنة غيرة استعرت في قلبه.. فأسرعت تقول:

ـ ولم أكن أعرفك كذلك.

ـ لا.. باركك الله.. لقد سددنا الديون كلها.. لا تدرين مدى الراحة التي أشعر بها ولا أدري كيف أرد لك جميلك.

ـ لا تحاول هذا.. فلولا روحي المغامرة لما كنت هنا الآن. صدقني يا أليكس، لم أندم على شيء. لقد استفدت من هذه الفترة كثيراً منذ تعرفت إلى جوانب أخرى للأعمال في بلادي. ولم أكن أعرف أن بعض الأماكن موجودة، وفي المستقبل عندما أقرأ عناوين في الصحف تقول.. «أسعار الصوف في هبوط.. الخ» فسأعرف ما يعني ذلك.. هل أصلحت الخزان؟

ـ ليس بعد.. سيساعدني نيل عليه. هل سترافقيني لتراقبي العمل؟

ـ لا.. بل سأخبز قبل أن أحلب الأبقار. فأوعية البسكويت والحلوى تقريباً فارغة، وأتساءل من المسؤول عن هذا؟

فضحك ومر من أمامها وراقبته يبتعد بابتسامة.. لقد تحسن كثيراً مؤخراً.. وبدا أشد اسمراراً وأكثر عافية فقد عرض كتفاه وتلاشى عنه شحوب المدينة.

قرر هاري وهو عائد من زيارة مريض أن يزور المنزل ثانية، كان يعلم أن نيل وأمه غائبان، فقد عرفت البلدة كلها ذلك. إنه صديق للعائلة، لذلك من حقه أن يزورها زيارة ودية.

وفي هذه المرة وجد روكسان تقرأ الأشعار التي ما زالت تذكرها منذ أيام الدراسة. فعبس هاري وهو يدخل إلى المطبخ ووضع أصابعه في أذنيه. فتوقفت روكسان عن إلقاء الشعر وقالت:

ـ هل عليك أن تقاطعني دائماً؟

www.liilas.com

- يا حلوتي.. عندما تنشدين الشعر بهذه الطريقة يتوجب عليّ مقاطعتك. ومن سوء الحظ أنني كنت المستمع. هل أنت مشغولة مرة أخرى؟

- اجلس واسترح قليلاً ريثما أضع هذا الوعاء في الفرن. إن قال أحدهم إن لا عمل لدى النساء الريفيات، فسأرد الكلمات إلى حلقه.

مد يده ليجرب قطعة من البسكويت ثم قال:

- ما رأيك بقليل من الشاي لأستطيع ابتلاع هذا البسكويت؟

- ولكنه ليس قاسياً إلى هذا الحد!

- لم أقل هذا.. أين خطيبك؟

- يصلح خزان المياه.. ما رأيك هل ستمطر قريباً؟

- إن طريقتك في تغيير دفة الحديث رائعة.. حسناً.. ستترك خطيبك خارج موضوع حديثنا.. ونبحث أمر المطر الذي أشك في انهماره قريباً.

- وماذا سيحدث عندها؟

- ستموت أشياء عدة. العشب والحيوانات والأشجار. إن مطر الربيع مطلوب الآن لتأمين غذاء الصيف ومائه. فإن لم تمطر اقفرت الأرض وبدأت الحرائق تلتهم كل شيء.

فارتعدت روكسان:

- طالما كرهت حرائق الهشيم. كنا نرى مثلها قرب منزلنا في الجبل، حيث لم تكن تترك الريح شيئاً وراءها.. هاري أتسمح بكل لطف أن تبعد يدك عن علبة البسكويت تلك؟

* * *

١١ - متى عرف السبب...

مر نيل وهو في طريقه إلى المنزل بسيارة هاري الذي لوح له محيياً بدون أن يتوقف، فحدق نيل إلى الغبار الذي أثارته سيارته. ماذا كان يفعل هناك حباً بالله؟ روكسان وحدها لأن أليكس يقوم بالعمل الذي يتوجب عليه فعله.. ولماذا لا يتذكر هاري أن روكسان توشك أن تصبح زوجة أليكس؟

قاد سيارته ببطء إلى المنزل، فهو تعب من الرحلة الطويلة، ولكنه لم يشعر بهذا التعب إلا عندما شاهد من في السيارة الأخرى. عندما نزل من السيارة ضجراً، سمع روكسان تغني في المطبخ، وعندما دخل، رفعت رأسها عن وعاء الخبز وابتسمت له مرحبة:

- لقد عرفت أنك القادم. إنما ليتك اغتنمت الفرصة واسترحت يومين آخرين..

- ولماذا؟

غاص قلبها لسماعها صوته، وأجابت:

- لأن في ذلك إفادة لك.. كيف حال خالتك؟

- ما زالت غائبة عن الوعي ولكنها متشبثة بالحياة.

مد يده إلى الطاولة ليتناول قطعة بسكويت، فهو لم يتوقف

www.liilas.com

ليتناول وجبة طعام أثناء سفره.. وأكمل:

ـ ستبقى أمي هناك. أكدت لها أننا سنكون على ما يرام.

ـ انتظر قليلاً.. سأعدّ لك الشاي. لقد زارنا هاري وأعددت له بعضاً منه ولكنه بارد الآن.

نظر إليها باكتئاب:

ـ رأيته.. أين أليكس؟

ـ ينظف خزان المياه خلف المنزل.. لقد أنجبت البقرة عجلين.

فتغيرت نظرته: «يا للخبر السار».

شعر بأن روكسان تتصرف وكأنها في بيتها خاصة وهي تضع تلك الميدعة على خصرها. أبلغته خبر ولادة العجلين بحبور وكأنها تعرف قيمتهما. بالاختصار بدت وكأنها فعلاً تنتمي إلى مزرعة «الأوز البري».

ـ هل أمطرت هنا؟

ـ لا يا نيل.

ـ أمطرت هناك حوالي الإنش صباح وصولهم.

ـ ولا أظنهم شكروا الله على ذلك.

ـ فعلاً.. بل تذمروا قائلين إن هذا كثير.

وضعت الشاي ثم جلست معه لتحتسي فنجاناً. تناهت إلى أنفيهما رائحة لذيذة من الفرن، وأحس نيل بجوعه الشديد وعلم أنه سيجد الطعام لذيذاً عندما ينتهي، لذلك لم يتناول المزيد من البسكويت اللذيذ.

لم تتعجب عندما وصلتها رسالة من أمها تتساءل فيها عما إذا قررت العيش هنا في شكل دائم. وهي تعتقد أن «المزحة» قد

طالت بما فيه الكفاية. «قولي الحقيقة وعودي إلى البيت فلولا لقاؤك بهؤلاء الناس لأنهيت جولتك في أوستراليا».

كان والدها أكثر واقعية. فسألها عن المال. فردت على رسالته بصراحة قائلة فيها إنها لا تحتاجه لأنها لم تنفق ما لديها من مال. وقريباً ستنفق القليل منه لأنها ستحتاج المزيد من الثياب، إذ لم تجلب معها إلا بعض الثياب القطنية. وهذا أمر ما سيفاجيء نيل إن عرف.

وشغل المال فكر نيل أيضاً، فبعدما سُدّد الدين أصبح أخوه شريكاً له. ولكنه لم يفكر ماذا يفعل بروكسان. فإن قال لها إنه دفع لها ما يستحقه عملها أخطأ، كما أنها قد لا تقبل به، لذلك ترك الموضوع عالقاً آملاً أن يشتري لها أخوه ما تحتاج إليه وهما يتسوقان من البلدة.. ولكنه تذكر أن شارلوت كانت تشتري الأغراض لنفسها في المدينة تاركة لأخيه دفع الثمن.

كانت تنشر بعض الغسيل في الشرفة الجانبية عندما سمعت نيل يدخل إلى المطبخ، فنظرت إلى ساعتها. لقد بكّر على موعد الغداء، فأسرعت إليه متسائلة عن الخطب. وما ان دخلت إلى الردهة الأمامية حتى توقفت وقد جف الدم من عروقها. فقد كان نيل مستنداً إلى الطاولة يحاول بيد واحدة أن يقص بالمقص كم ذراعه الأخرى النازفة دماؤها على المائدة.

ـ ماذا حدث؟

فرفع رأسه:

ـ لا شيء.. جرحت ذراعي بقطعة من المعدن.. وسأنظف الجرح.

فهرعت إليه وانتزعت المقص من يده.

www.liilas.com

- لا.. فهذه مهمتي.
- قد يزعجك مرأى الدماء لأنك غير معتادة عليها.
- لست معتادة عليها؟
- هل تذكرين يوم سباق الخيل؟ آه اتركيني إذ يكاد يغمى عليك.
- لا.. لا تكن سخيفا! فالجرح بحاجة إلى التعقيم.
وجرته من ذراعه نحو المغسلة.. فقال:
- أستطيع هذا بنفسي ولكن اقطعي الكم.
راقبته يضع ذراعه تحت الماء ثم رأت الدماء تتدفق من ذراعه إلى يده، ومنها إلى المغسلة البيضاء. فقال:
- يجب ألا تقفي هنا.
- إنه بحاجة إلى أكثر من التنظيف بالماء.
بالها تقف كالبلهاء.. لقد شاهدت جروحاً عديدة في حياتها، ولكنها لم تتأثر بها هكذا.. دفعت نفسها لتتحرك وأحضرت بضع زجاجات ورزمة وضمادة من الحمام:
- نظفه بهذه يا نيل.
نظر إلى أطراف الجرح الواسع وعلم أنه بحاجة إلى أكثر من الماء، فكان أن وضع ذراعه في الوعاء الذي أحضرته ونظر إليها قائلاً:
- قلت لك.. لا حاجة إلى وقوفك هنا.
- سمعتك، ولكن إن لم نفعل شيئاً لهذا الجرح التهبت ذراعك. إنه بحاجة إلى تقطيب.
- وإن يكن؟
- عليك برؤية الطبيب.

- أزور هاري من أجل هذا؟ أكون ملعوناً إن فعلت!
- حسناً.. حسناً.. لا تصرخ في وجهي.
فكرت في ما يضمه صندوق الإسعاف الأولي، وقالت:
- فلنضع عليه اللصوق الطبي.
- حسناً سنضعه شرط أن تتوقفي عن الذعر.. إنه مجرد جرح.
بدا ضجراً مما تفعله، فوضعت اللصوق بحذر على كلا الجانبين.. ثم ضغطت بأناملها الرشيقة اللحم المتباعد لتقرّب طرفي الجرح. كانت راحة يده مرتفعة نحوها فكبحت لهفة مجنونة إلى إحناء رأسها لتضغط بشفتيها على راحته. ثم انتصبت واقفة تحاول حبس الدموع المتسارعة إلى عينيها.
إذن، نيل هو سبب بقائها.. إن هذا الرجل الأسود الشعر البني العينين الباردتين عادة سبب ترددها بالرحيل..
سألها:
- أنت لا تعرفين ماذا تفعلين أو كيف تفعلين هذا، أليس كذلك؟
فتمتمت وهي لا تجرؤ على رفع صوتها:
- أفعل ما بوسعي.
وارتابت في قدرتها على معالجة هذا الجرح فقد شلّت الحركة أناملها وشعرت بالعجز عندما أحست بنظراته مثبتة على رأسها المنحني. قالت:
- حسناً.. هذا سيفي بالمراد، ولكن حذار أن توسخها.
وربتت على ذراعه لمجرد الاستمتاع بلمسه قبل أن تتراجع.. فقال:

www.liilas.com

- لا أوسخ الضمادة؟

- لا أيها السخيف بل أقصد الجرح.

- إنها المرة الثانية التي تنعتينني فيها بالسخيف.. قد أكون سخيفاً في بعض الأمور، ولكنني في أخرى بعيد كل البعد عن السخف.

بعد هذه الملاحظة ترك الغرفة حتى بدون أن يشكرها. التقطت روكسان الضمادات والزجاجات والقطن، وغادرت الغرفة راكضة ودخلت إلى غرفتها التي أغلقت بابها، واتكأت عليه.

همست لنفسها: لقد عرفت الآن..! يا إلهي.. لقد عرفت الآن!

وجلست في غرفتها فترة طويلة، تحتضن فلوفي، وتحدق إلى الغرفة. يجب ألا يلاحظ أحد أي فرق.. يجب أن تبقى على حالها حتى عودة السيدة هايدواي..

تمتمت:

- وبعد عودتها.. ماذا أفعل؟ ولنفترض أن حظي ساعدني وشعر نيل بميل نحوي، فماذا سيقول عندما يعرف ما فعلت؟ ماذا سيقول عندما يعرف أنني اتخذت دور امرأة أخرى، وعشت تحت اسم آخر بغية خداعه وخداع أمه وأصدقائه؟ ولكن لولا لعبتي تلك لما التقيت به، أليس كذلك؟ آه يا فلوفي!

سمحت لنفسها بالبكاء، وهي جالسة على أرض الغرفة.. بعد ذلك جففت عينيها ونظرت إلى نفسها في المرآة.. وصاحت وقد أدهشها أن مثل هذا الاكتشاف الرائع لم يغير فيها شيء.

- لا أبدو مختلفة مع أن حالي اختلفت من الداخل وهذا ما

هو ميؤوس منه، أعرف هذا، ولكنني أشعر بمشاعر دافئة مريحة.. مشاعر مطمئنة.. أما هو فلن يعرف!

لم تدرك روكسان ما حصل لها، ولكن حبها له أضفى عليها تألقاً داخلياً وشعوراً جديداً لم يسبق أن عرفته. أحس أليكس بها وحاول جاهداً معرفة ما المختلف فيها، وشعر بخيبة الأمل عندما رفضت الخروج معه في نزهتهما المسائية المعتادة. بدا متجهماً طوال السهرة وقد اتخذ نيل من تجهمه عذراً للذهاب إلى النوم، فقد رفض الاعتراف بأن ألم ذراعه هو السبب الرئيسي.

في الصباح التالي تورمت ذراعه وعندما رفض أن تكشف عنها ضربت قدمها بالأرض ضربة جعلته ينتزع الضمادة، ثم قالت وقد لاحظت سوء حالتها:

- عليك الاعتناء بها جيداً نيل. إن حالة جرحك سيئة لأنه ملتهب وهذا يعني أنك لن تقدر على معالجته بنفسك.

ولكنه أصر على أن يعيد غسل الجرح وتضميده.

- قد يتسمم دمك!

- سيكون هذا من سوء حظي.

- آه! ما أسخفك! أنت أحمق وعنيد. ألا تستطيع نسيان كراهيتك لي لتصغي إلي ولو لمرة بدون أن تصرخ في وجهي بشراسة؟ أعرف أن ما قد يحدث سيكون من سوء حظك، فأنت من ستعاني ولن يتحمل أحد معاناتك نيابة عنك إنما لماذا المعاناة بدون سبب؟ ليس لدينا في المزرعة ما يساعد على معالجة هذا الجرح.

والتفتت إلى أخيه متوسلة عندما دخل ليعرف سبب صراخها:

www.liilas.com

- أليكس.. قل لهذا الرجل الضخم العظيم الجلف إن المرأة تفهم في بعض الأحيان أكثر منه، وإن هذه المرة هي أحد المرات.

تلاعبت بسمة خفيفة على وجه نيل أما أليكس فقهقه عالياً إذ لم يسبق أن شاهد أي منهما هذا التورد على وجنتيها أو هذا البريق الغاضب في عينيها. ولاحظ أليكس أن هذا يزيدها جمالاً.. ثم وقع نظره على ذراع أخيه.. فصفّر:

- إنها على حق يا نيل.. يبدو الجرح رهيباً. سأرافقك إلى عيادة هاري.

- لا أريد.

فصاحت روكسان:

- أحمق!

وصمتت، فانتظر الرجلان منها نوبة غضب أخرى.. إنها تعرف ما عليها القيام به وكيف تقوم به ولكنها لا تملك من الأدوات والأدوية ما يساعدها على تنظيف الجرح وتضميده. نظر إليها نيل، ثم إلى أليكس، وعندما تكلم أصيبا بصدمة.

- متى ستتزوجان؟

فانتفض أليكس، وشهقت روكسان وأشاحت بوجهها، لقد نسيت أن من المفروض أن تكون حبيبة أليكس.

كرر السؤال: «حسناً؟»

فتمتم أليكس:

- قريباً.

- نعم عليكما ذلك قريباً.

- أتعني أنك لا تعارض الآن؟

فرد نيل بجفاء:

- لا.. لا اعتراض أبداً، فلا أرى سبباً يدفعكما إلى الانتظار.

أحست روكسان بغضبها يزداد:

- لا علاقة لزواجنا بذراعك.

فقال أليكس:

- أجل.. ذراعك.

وتابعت روكسان بسرعة:

- أظن أنها الأهم الآن.

- على كل الأحوال يا نيل.. روكسان تعرف أكثر منك عن الجروح..

- لماذا؟

- لأنها...

وصمت بسبب نظرة روكسان المجرمة.

فأردف: «حسناً إنها امرأة. والمرأة عادة أخبر بمثل هذه الأمور وربما يعود ذلك إلى غريزتهن. دعها تتصل بهاري.. ووفر الرحلة إلى البلدة».

يبدو أن الألم في ذراعه اشتد، فاستسلم:

- افعلي ما بدا لك.

وأسرعت روكسان تتصل بهاري الذي أجاب بنفسه:

- صباح الخير، دكتور ابرقنغ يتكلم.

- أنا شارلوت مايسون من مزرعة «الأوز البري».

- مرحباً يا عزيزتي! يا للمفاجأة السارة.

- جرح نيل ذراعه بقطعة معدنية.

www.liilas.com

وأخذت تشرح له ما فعلته بالجرح ثم لمّا سمعت ضحكة هاري الشريرة كرهته لأنه بدا عارفاً بشعورها. قال لها:

- وهما الآن يستمعان إليك.. أليس كذلك؟

- أجل يا دكتور.

- وما زلت متمسكة باللعبة؟

- لا يا دكتور.

- إذن هل نسيت ما عليك فعله في مثل هذه الحالة؟

فردت روكسان من بين أسنانها وقبضتها تشتد على السمّاعة.

- حسب الظروف.. بذلت ما بوسعي.

- حسناً.. لن أزعجك أكثر بمداعبتي. وماذا يحتاج الجرح برأيك؟

- هذا ما عليك شرحه لي.

فضحك منها ثانية.. وأحست بالامتنان لابتعاد الرجلين عنها وألا لسمعا ضحكته المجلجلة.. ذكرت له ماذا لديهم من معدات في علبة الإسعاف، فقال معلقاً:

- ما تملكونه غير كاف. سأمر لزيارتكم وأنا في طريقي لزيارة مريضتي بعد قليل. اطلبي من نيل عدم الاختفاء.

- وهل ستجلب معك شيئاً؟

- عندما أخرج في مهمة إنسانية أحمل معي كل ما هو ضروري.

وعندما عادت إلى المطبخ كررت ما قاله هاري:

- سأضمد ذراعك حتى وصوله.

فسألها نيل بهدف الإزعاج:

- لما لم تناديه هاري؟.. عادة تفعلين هذا.

- ولكنها مكالمة عملية، وعلى المرء أن يراقب كلامه في مثل هذه الأوقات.

عندما وصل هاري بدأ فوراً في مهنته، فعاين الذراع بصمت ثم تنهد وأخرج حقنة من حقيبته:

- الإبرة أولاً.

ورفع نيل حاجبيه:

- ولكن...

- لا تجادل نيل.. جرحك ملتهب وأنت بحاجة لإبرة كل أربع ساعات مدة يومين. ستقوم روكسان بهذه المهمة.

فأجابه ساخراً:

- سيغمى عليها على الأرجح.

- قد تكون مخطئاً يا عزيزي.. على كل سأشرح لها كيف تقوم بذلك، والآن اجلس لأعالج الجرح.

عضت روكسان على شفتها إشفاقاً، إذ رأته يفتح الجرح ويبحث في داخله ليخرج قطعة معدنية. ونظر إليها عابساً وكأنما يتساءل كيف نسيتها، ولكن نيل لم يسمح لها بما يتعدى وضع اللصوق وتضميد الجرح. لقد اكتشفت أن الإصابة عندما تتعلق بشخص عزيز تصبح أصعب، فالمرء يشعر بمعاناة الحبيب، ويتمنى لو كان هو المتألم. عندما أنهى تضميد ذراعه قال:

- لا حاجة للانتظار هنا نيل. قمت باللازم وسأترك التعليمات والأدوية مع روكسان.. سأريك يا روكسان كيف تنفذين تعليماتي إن انتبهت لي جيداً.

نظر نيل إليه برهة، ثم هز رأسه شاكراً وترك الغرفة.

www.liilas.com

بعد حديث قصير مع روكسان، غادر هاري المنزل وصاح مودعاً الجميع بمن فيهم البستاني. ثم تلاشى صوت محرك سيارته فتنهدت ثم التقطت الحقنة، وحبوب الدواء، والأغراض الأخرى التي تركها هاري، وحملتها إلى غرفتها. علمت أن نيل سيكون مريضاً صعب المراس، ليس لأنه يخاف الحقن بل لأنه مصمم على كراهيتها.

صاحت لنفسها:

- لقد بذلت قصارى جهدي.. منذ وصولي إلى المزرعة وأنا أسعى جهدي لتسهيل أمور أليكس ووالدته وأخيه. آه.. يا نيل. أتكرهني لأنك تظنني شارلوت أم تكرهني لنفسي؟

* * *

١٢ ـ النار في كل مكان

عندما حقنت روكسان نيل في المرة الأولى وقف كالقضيب، فنظرت إليه، والضحك في عينيها:

- استرخ نيل.. استرخ.. لن تقتلك الحقنة.

- لست واثقاً من هذا. لأنك غير معتادة على مثل هذه الأمور والله وحده يعلم ما قد يحدث.

فقالت: «ستتكسر الإبرة في أسوأ الأحوال..»

حقنته بخفة ومهارة ثم مسحت ذراعه بالكحول وتراجعت مبتسمة بمرح:

- انتهى الأمر.

فنظر إلى ذراعه ثم إليها بذهول، ولكنه لم يعلق.

سيطرت روكسان على مشاعرها سيطرة كاملة.. كانت سعيدة بقربها منه حيث ترعاه وتعنى به. وكان هذا الشعور مختلف عما توقعته، وكم رغبت في تقديس هذه الذكرى وذكريات أخرى.

وصلهم خبر وفاة الخالة في الصباح التالي.. فساد التجهم المنزل. وأخذ نيل وأليكس يفكران في القيام برحلة ليواسيا والدتهما، ولكنها اتصلت في اليوم نفسه لتطلب منهما البقاء في

www.liilas.com

المزرعة. فالجنازة ستجرى في اليوم التالي، وهي ستبقى أسبوعاً آخر قبل العودة ثم قالت إنها ستعلمهم بموعد عودتها، وأرسلت إلى روكسان كل حبها.

ران الهدوء والصمت على روكسان بعد هذا.. كانت تقدم للأخوين احتياجاتهما بصمت غير عادي ظناه تقديراً منها لمشاعرهما. ولكنها علمت أن العد العكسي قد بدأ، وأن إقامتها في مزرعة «الأوز البري» ستنتهي عما قريب، وعليها أن تقول وداعاً للرجل الذي أحبته حقاً. لم يكن لديها سوى الكلية الصغيرة لتسليها، فكانت تضمها وتفرغ عليها مكنونات فؤادها باكية على نفسها وعلى الألم الذي سيعتصر قلبها والذي ستواجهه بدون شك.

لم يساعد الجو في إزالة التوتر فقد اشتدت الحرارة وهبت رياح قوية جافة، جلبت معها حرارة كبيرة، وغباراً غطى كل شيء بطبقة سميكة وأشعلت غضب روكسان لأن كل ما في المنزل اتسخ. وأخرج نيل وأليكس فراشيهما إلى الشرفة، ولكنهما عادا متذمرين من البعوض الذي لم يتركهما ينامان. أما روكسان فتركت نوافذ غرفتها مفتوحة، تفكر في ما قاله نيل بعد الظهر وهي تغير له ضمادة الجرح عن إحساسه بشعور غريب.

- وما هو؟

- لا أستطيع تحديده. أحس بالقلق.. وكأن شيئاً ما سيحدث. أكره هذه الأيام التي يكون فيها الجو خانقاً. هل تفهمين قصدي؟

- أظنني أفهمه. أنت تفكر في الحرائق.

ونظرت إليه بعطف، تحس بالتوتر يخنقه، وقاومت رغبة في

مد يدها إلى كتفيه لتدلكهما حتى يستريح. ماذا ستحس يا ترى إن رفع ذراعه الأخرى ووضعها حولها وعانقها؟

تمتم لها: «لا شك أن الحر قد أثر فيك».

- قد يغيره عاصفة رعدية برافقها مطر كثيف.. ذراعك أفضل حالاً الآن.

- أجل.. شكراً لك.

فابتسمت:

- أهلا بك.. عد مرة ثانية.. بعد أربع ساعات.

في العاشرة والنصف، رن جرس الهاتف فهبوا جميعاً من أماكنهم وسارع نيل إلى الرد وكان ما سمعاه:

- نعم.. لا.. أين..؟ نستطيع المجيء الآن.. اعلمنا إن احتجتنا..

وعلق أليكس على ما سمعه مقطباً:

- يبدو أن حدس نيل لم يخطىء.

- أتعني...

- ثمة مشكلة في مكان ما.. ما الخطب نيل؟

- وقع أمر رهيب، احترق حوالي ألف فدان من الأراضي، وإن لم تخف الريح وصلت النار إلى الطريق وإلى خط السكة الحديدية في الصباح.

- واو.. كيف اتجاهها؟

ورد نيل بصوت جاد:

- إنها متوجهة ناحية البلدة. سيتصلون بنا ليعلمونا بما يطرأ.. ولكن من الأفضل أن نستعد يا أليكس.

فانضمت روكسان إليهما:

- هل أستطيع تقديم المساعدة؟

فهز أليكس رأسه:

- أخشى أنك لن تستطيعي شيئاً.. شكراً.. فنحن نعرف ما يجب فعله. نذهب إلى هناك، ونأخذ ما تيسر لنا من قماش وأكياس وثياب قديمة ونطفىء النار.

رد نيل بخشونة وقلق:

- تعني أننا نحاول.. فالمياه في الخزان قليلة لذا علينا حفر خندق واسع في وجه النار، ثم الابتهال إلى الله حتى لا تتجاوزه ألسنة اللهب. سأخرج لتحضير اللاندروفر.

غادر المنزل بخطوات مصممة، ودهشت روكسان لرؤية كلبتها تلحق به. أما أليكس فبدا قلقاً:

- يجب أن تبقي هنا وحدك روكسان. يخرج جميع الرجال في مثل هذا الوقت.

- لا تقلق علي. ألا أستطيع مساعدتكم في ما لو رافقتكما؟

- لا.. يستحسن بقاؤك هنا. فقد يحدث شيء ما في مكان ما وعلى أحدهم البقاء قرب المنزل ليعطي الإنذار عند الضرورة. هل أنت خائفة؟

- أنا؟ بالطبع لا. سأحرس المزرعة.

ومد يده ليمسك بيدها فقالت بخفة:

- تصرف بشكل لائق.. فليس الوقت مناسباً لإبداء الشكر. ماذا عن الطعام؟ هل أحضر لكما شيئاً؟

- طعام؟ ومن يفكر في الطعام؟

- أنا.. لن أتخلى عن هذا إلا بعد وصول والدتكما. وعندها سأنهي كل شيء.

- لا ضرورة لإنهاء كل شيء..

- أليكس أرجوك! لقد بذلت ما بوسعي لمساعدتك. فإن أردت مكافأتي فنفذ ما اتفقنا عليه. لن أنساكم أبداً. أرجو أن أسمع أخباركما من والدتكما، هذا إن رغبت في مراسلة الفتاة التي تخلت عنك.

- إنها تحبك.. آه يا روكسان؟ ألن تصغي إلي؟

فردت بصوت حازم:

- لا يا أليكس.. أنا آسفة.

- وأنا آسف أيضاً.

وخفّ إلى مساعدة نيل.

رن جرس الهاتف ثانية في الثانية صباحاً فسمعه الجميع وأحسوا بخطورة الاتصال. خرج نيل من فراشه بلمح البصر، واستمع بدون أن ينبس بكلمة:

- سنكون معكم بعد لحظات..

أقفل السماعة وسارع إلى الشرفة حيث كان أليكس جالساً في فراشه، وقال له:

- النار تنتشر بسرعة وهم بحاجة إلى كل عون. هيا بنا!

وضعت روكسان روبها على كتفيها وأسرعت تضع الطعام في اللاندروفر. خرج نيل راكضاً من غرفة الحديقة الصغيرة، فشاهدها في الظلام وتوقف.

- ستبقين هنا وحدك روكسان.

- أعرف هذا، فالأبقار والدجاج بحاجة لمن يطعمها. سأتدبر أمري نيل.

- أعرف أنك قادرة على هذا.

www.liilas.com

وأحست بالسعادة لرضاء عنها.

غادرا المنزل في دقائق، فعادت ببطء إلى الداخل. إنها الآن سيدة مزرعة «الأوز البري». ورفعت رأسها فشمت رائحة الخشب المحترق من بعيد وهي رائحة تحملها الريح التي لم تخف سرعتها. عبست لأنها تعرف كم من المساحات قد تلتهم النيران. واتجهت أفكارها إلى الرجلين المتوجهين إلى البلدة، وإلى جميع المكافحين والعاملين على تخفيف وطأة الكارثة، ثم فكرت في الأملاك وفي المواشي والحيوانات المختلفة. ودخلت إلى المنزل لتكتشف أن النوم قد جافاها.

في التاسعة صباحاً رن جرس الهاتف فازدادت تقطيبة روكسان عمقاً خاصة عندما سمعت صوت هاري:

- روكسان أهذه أنت؟

- نعم.

- أحتاج إلى عونك فأنت الوحيدة القادرة على مساعدتي.

اجتاح الخوف فؤادها:

- ماذا حدث؟

- وقعت حادثة سيارة على بعد سبعين ميلاً، وقد أصيب فيها رجلان ولكن سيارة الإسعاف لا تستطيع الوصول إليهما وليس لدينا سيارة إسعاف أخرى. لقد تلقينا رسالة الاستغاثة عبر جميع الوسائل.. وأنا لا أستطيع الذهاب بسبب العدد الهائل من الرجال المصابين بالحروق كما أن عندي امرأتان توشكان على الولادة. أرجوك توجهي إلى مساعدتهما.

- ماذا بمقدوري أن أفعل؟

- ديك ثورن، زوج جولي أم الطفلة التي تعرفت إليها في

حفلة العشاء هو طيار ولديه طائرة صغيرة وقد عرض المجيء لاصطحابك إلى مكان الحادثة للعودة بالمصابين. وليس هناك من وسيلة أخرى. لن يخبر أحداً بالأمر..

- هذا لا يهمني هاري.. أعطه ما أحتاج إليه من أدوية وضمادات..

- فتاة طيبة، علمت أنني أستطيع الاعتماد عليك.. سأزوده بما هو ضروري. إن احتجتني اتصلي بي عبر جهاز الإرسال في طائرته.

- قد أحتاج إلى نصحك، ولكن أين ستحط الطائرة هنا؟

- أوه.. فوق الطريق العام قرب المرعى الثاني.

- أعرف المنطقة.

- حظاً سعيداً، وشكراً.

كانت روكسان قد استيقظت باكراً فحلبت الأبقار وأطعمت الخراف والكلاب والدجاج.. بعد هذا الخبر سارعت إلى إنهاء كل ما هو ضروري وبعد ذلك حضرت سيارتها ووضعت كلبتها فيها. وأوقفت السيارة في النقطة المحددة تحت شجرة وانتظرت.. ثم سمعت هدير الطائرة، وانتظرت أن تحط.

عندما حطت الطائرة على مسافة مئة يارد منها أسرعت إليها تتبعها كلبتها، فحياها الطيار.

- آنسة تمبست على ما أظن؟ هذه مفاجأة! لقد فوجئت بسرك الذي أخبرني إياه هاري.

- وهل ظننت الأمر مزاحاً؟

- ربما كان دورك في الأمر مزحة.. ولكن ما هو آت لن يكون كذلك.

www.kilas.com

ثم تغير تصرفه حالما أصبحا في الجو:

- يجب أن نبتعد عن النار، وهذا سيؤخرنا بعض الشيء، لا يبرح ذانك المسكينان تفكيري.

راحت تمر تحتهما أشجار وأشجار وما لبث أن زال كل شيء ولم يعد يُرى إلا الأرض والسماء وسحابة سوداء. مرا بالبلدة ثم تراءت النيران من بعيد وفيما كانت تنظر إلى الأسفل تساءلت أين يكون نيل يا ترى. وسألت ديك بعد دقائق:

- هل أعرف الرجال الذين نتجه إليهم الآن؟

- أشك في هذا.. يبدو أنهما غريبان عن المنطقة.. علينا الآن أن نحط فوق طريق أخرى، ولا أستطيع أن أضمن سهولة الأمر.

دارت الطائرة الصغيرة فوق المنطقة، وشاهدت روكسان السيارتين المحطمتين على الطريق، ولوح لهما جماعة صغيرة من الرجال. وبعد لحظات كانت الطائرة على الطريق.

أبعد الرجال عن المصابين وعن مكان الحادثة وشرح لها الرجل الذي اكتشف الحادث ما حصل. فسارعت روكسان إلى دخول سيارة الرجل ليرافقهما إلى منزل صغير تظلله شجرة ضخمة وهناك استقبلتهما امرأة سمراء جميلة قادت روكسان إلى غرفة النوم الوحيدة في المنزل.

كان أحد المصابين جالساً مرتبكاً على كرسي والآخر ينفث دخان لفافته بعصبية إذ يده مكسورة ووجهه بنزف. ولكنه بدا أكثر قلقاً على رفيقه.

سألها بقلق:

- هل أنت طبيبة؟

ففتحت روكسان الحقيبة بدون تردد وأخرجت حقنة لتدفع بالمخدر إلى ذراعه.

قال ديك باختصار: إنها المسعفة الآنسة تمبست. لم يستطع الطبيب المجيء لانشغاله بإصابات الحريق.

- كنا في طريقنا إلى تقديم العون عندما وقع الحادث.

ونسيت كل شيء في الساعة التالية وانشغلت بالرجل الآخر الذي كانت إصابته خطيرة وكان عليها أن توصله إلى المستشفى بأسرع وقت ممكن، ولكنهم لم يستطيعوا تحريكه بسبب حالته الخطرة. كان صاحب المنزل وزوجته السمراء يقدمان الماء المغلي بدون التفكير في المياه الشحيحة كما كانا يمزقان ملاءات السرير عن طيب خاطر.

سألها ريك بصوت منخفض:

- ما رأيك؟

- لا أمل له بالحياة إن لم يجرِ له هاري عملية فورية. لا أستطيع فعل المزيد.. أرجوك أحضر الحمالة لأن علينا تحريكه بحذر متجنبين المطبات الهوائية في طريق العودة ويستحسن الاتصال بهاري لإخباره بأمر الإصابة ليجهز ما هو ضروري للعملية.

- إنها عملية صعبة عليه.

- سأساعده.. لقد تدربت على هذا النوع من العمليات.

نظرت إلى الرجل الجالس على الكرسي مبتسمة بود ولطف:

- سننقلكما من هذا المكان.. دعني أرى ما أستطيع فعله ليخف ألمك.

* * *

١٣ - الجندية المجهولة

حصل هاري على أمنيته. إنه يرى روكسان معه في غرفة العمليات. وتذكر أيام الجامعة، فرفع رأسه برهة لينظر إليها. هكذا كانت دائماً قبل افتراقهما، تعرف ما يحتاجه قبل أن يطلبه. لم يكن يهمهما شيء سوى حياة هذا الإنسان. كانت رئيسة ممرضات المستشفى معهما.. أخبرها هاري بأمر روكسان ووصولها مع المريض، وأدهشتها قدرة هذه الفتاة وبراعتها.

انتهت العملية، وخرجت روكسان لتخلع ثيابها.. فجاء هاري ليشكرها. بدا مرهقاً متعباً وقال:

- أنا سعيد لإنهاء العملية. سيعيش الآن إنما يجب أن يشكرك إن وقف على قدميه ثانية.

- تبالغ كالعادة.

- لا يا روكسان بل أعني ما أقول. ليتك تبقين هنا، ابقي معي..

- لا تكمل!

ولمح نظرة ألم في عينيها.

- أحبك.

- أرجوك!

www.liilas.com

- ألن تقبلي فكرة الزواج بي؟ إن مكثت هنا مدة فقد تتعودين علي!

- أكره أن أفعل هذا بك. ليس فيك علة بل أنت طيب القلب لطيف المعشر بارع في عملك، وأحس بالفخر والشرف لأنك تفكر في الزواج بي.. ولكنني لا أستطيع!

- وهل ستتزوجين أليكس؟ أهو السبب؟ أخبريني روكسان.

ارتجفت شفتاها ضيقاً فأدرك شدة تعبها.

أجابته: «لا، لن أتزوج أليكس لأنني لا أحبه بل أنا عائدة إلى منزلي».

- آسف يا عزيزتي.. ما كان علي أن أقول ما قلته. كان من الخير لي لو كتمت سري في قلبي إلى وقت ملائم.

- تدفعك طيبة قلبك إلى هذا القول ولكن الرد في أي مكان أو زمان هوما هو دائماً.

- لا بأس يا روكسان.. ديك بانتظارك في سيارته لإعادتك..

- إعادتي؟ آه إلى المزرعة! أتمنى أن يكون كل شيء فيها على ما يرام. وقعت مشاكل رهيبة.. لقد نسيت واجباتي.. الشكر لك هاري.

فأمسك يدها:

- هل سأراك قبل رحيلك؟

- سأزورك قبل سفري.. سأرحل حالما تعود السيدة هايدواي.. ثم سأراسلها لأبدي أسفي الشديد بشأن الزواج بابنها.

أحست برغبة في الصراخ: آه! بل أريد أن أتزوج ابنها إنما

الأكبر لا الأصغر.

نقلت أخبار الإذاعة المحلية وقت الفطور في الصباح التالي صورة مضخمة عن النيران التي ما تزال مشتعلة بشكل غير خطر وقد أبدت الإذاعة تفاؤلها لأن أسوأ مرحلة قد ولت ثم تنبأت النشرة الجوية بوجود غيوم محلية مثقلة ببعض الأمطار.

فعلق نيل: «لن أصدق إلا حين أرى المطر بأم عيني».

- صه.. استمع!

وأصغى أليكس ثانية إلى الراديو، وتابع المذيع يصف حادثة الاصطدام التي وقعت على إحدى الطرق الفرعية:

- تدور في البلدة أقوال عن هوية المسعفة المنقذة التي هرعت إلى منطقة الحادث على متن طائرة ديك ثورن الذي قال في مقابلة صحفية إن الدكتور ايرڤنغ طلب منه مرافقة الآنسة تمبست بالطائرة للعودة بالمصابين. ولم تكشف الأسئلة التي طرحت على الدكتور ايرڤنغ شيئاً عن تلك الآنسة إذ اكتفى بالقول إنها مسعفة تقوم بإجازة في المنطقة. وقال أحد المصابين إن براعتها ومهارتها كانتا سبب بقائه على قيد الحياة. وفي الواقع يرغب الجميع في معرفة مكان إقامة هذه السيدة العظيمة لتقديم الشكر لها.

صاح نيل، والدخان الأسود يتصاعد من السخّان الكهربائي:

- روكسان.. التوست.

فأدارت نظرها المذعور نحو أليكس فنيل، وسارعت لتحرق أصابعها وهي ترفع قطع الخبز السوداء من السخّان.

أمسك نيل بقوطة المطبخ وأخذ يبعد الدخان عنه.

- أين كان عقلك حتى تركتها تحترق هكذا.. لم أسمع بمن

www.liilas.com

تدعى تمبست في المنطقة.. هل سمعت بها يا أليكس؟

فهز أخاه رأسه نفياً، في وقت لاحق وجدته روكسان في الحظيرة مع البقرات فقالت له وهو يحدق بها غاضباً:

- لن تجرؤ على عمل شيء..!

- كنت أنت.. أليس كذلك؟

- أجل.. وإن قلت شيئاً لأي كان قتلتك سعيدة.

- ولكن لماذا تريدين إخفاء الأمر؟ كان عملاً رائعاً.. روكسان لهذا السبب بدوت تعبة عندما عدنا ليلة أمس. ما كان عليك انتظارنا بعد يومك الشاق.

- اتصل بي هاري وأقلني ديك، كان عليّ الذهاب لأن الجريحين كانا بأمس الحاجة إلى من يعالجهما. لذا توقف عن التحديق إليّ وكأنني إنسانة خارقة. لقد انتهى الأمر الآن فانسه!

رغبت هي في النسيان أما الآخرون فلم يرغبوا في ذلك إطلاقاً. فقد أسرت فكرة وجود مسعفة تقطع أميالاً بالطائرة للوصول إلى جريحين، أفكار أهل البلدة وتصاعدت المطالبة بمعرفة مكانها والطلب إلى من تسكن معه أن يكشف عن مكانها فوراً. وجاءت المقابلة المسجلة مع الجريح الذي شاهدها أكثر غموضاً.

- آسف.. أود مساعدتكم في إيجادها، لأن لدي ما أقوله لها. كانت اللطف بعينه، أما أخلاقها فرائعة، ولكنني كنت مصدوماً ومشوشاً أذكر أنها حقنتني بحقنة مخدرة فنمت.

لاحظ نيل اهتمام أخيه بالراديو كلما أذيع خبر عن الموضوع. وقال له معلقاً:

- تبدو مهتماً جداً بتلك الشابة.. أتعرفها؟

- من؟ أنا؟ ولماذا أو كيف لي أن أعرفها؟ ولكن الخبر مذهل، ألا تظن هذا؟

التفت نحو روكسان مكشراً، ثم ابتسم، ووقف ليرد على الهاتف. ومن الردهة صاح:

- إنها أمي.. لقد وصلت إلى البلدة وتريد أن يصحبها أحدنا.

نظرت روكسان إلى نيل فإذا بسمته المشرقة تكشف مشاعره. لن تعرف أبداً ما سيكون شعورها لو وجه لها نيل هذه البسمة.

سارع يأخذ الهاتف من يد أخيه:

- نيل؟ أنا في البلدة، وصلت في قطار الصباح. كنت على عجلة فلم أعلمكم بوصولي. أخبار الحريق هي سبب عودتي لأنني قلقت قلقاً كبيراً. هل انتهى الحريق؟ الطقس مكفهر هنا في البلدة، والتوقعات الجوية صدقت هذه المرة، فقد تمطر. هل روكسان بخير؟ أتوق شوقاً إلى رؤيتها.. حسناً سأنتظرك عند روزالي.. أتصل بكم من هناك.

قفز الشقيق الأكبر خطوة كبيرة إلى حيث كانت روكسان تفتش في البراد عما تستطيع طبخه لتكريم السيدة هايدواي. في المطبخ بيض كثير ولكن الزبدة غير دسمة، ولا يمكن لوم الأبقار على هذا، فالمسكينات لا يتناولن الغذاء الكافي.

قال نيل بسعادة عارمة:

- والدتي في البلدة، وأنا ذاهب إليها. أرجوك ضعي ضمادة أخرى لأنها إن شاهدت ذراعي جُنَّ جنونها.

- كان من المفروض تغيير الضمادة ليلة أمس.

- كنت تعباً.. الجرح أفضل حالاً، ولن أزعجك أكثر.

وغيرت الضمادة وهي تعض على شفتها، وتساءلت إن كان سيذكره أثر تلك الندبة الصغيرة بها بعد رحيلها.

عملت روكسان جاهدة ليكون كل شيء على ما يرام لدى عودة سيدة المنزل.

علقت وهي تنتقي الخضار بنفسها تحت إشراف البستاني:

- كيف تحافظ على نضارة الخضار هكذا؟

- حسناً، أنا أضع دلاء تحت كل الحنفيات في المنزل. وآخذ ما يفيض عن الاستخدام فأسقي به الزرع، ليتنا نحفر بئراً هنا، ولكن السيد نيل ووالده من قبله مصران على أن الماء شحيح في هذه المنطقة.

- أما أنت فتشعر بأن هناك ماء؟

- لا أدري، أظن أن الأمر يستحق المحاولة. ولكن عملية حفر بئر تكلف كثيراً وأرى أن من الصعب تنفيذ ذلك في هذه المرحلة القاسية.

- عندما اتصلت السيدة هايدواي قالت إن الطقس مليء بالغيوم في البلدة، وإن خفّت سرعة الريح أمطرت السماء.

- هذا ممكن.. إننا نبعد أكثر من خمسين ميلاً عن الغيوم المليدة ولكن ثمة أمل بحدوث شيء.

- حسناً.. لا بد لكل شيء من نهاية في وقت ما.

اعتادت على وجود كلبتها بين قدميها. ولكنها اكتشفت أنها غير موجودة، فأخذت تجوب المنزل تناديها، ثم خرجت إلى السقيفة وهناك شاهدت أليكس:

- أليكس! أين أنت؟ هل شاهدت فلوفي؟ لقد أضعتها..

- لقد ذهبت بالسيارة مع نيل.. ظننتك تعرفين.

- ذهبت مع نيل؟ هل أنت واثق؟ إنه لا يحبها!

- لا تمزحي! إنهما رفيقان دائمان.. ألم تخبرك؟

وابتسم فردت بغضب:

- لا لم تخبرني.. كيف لها ذلك؟

- ستعود مع أمي، فلا تقلقي روكسان. آه نسيت أن أقول لك إن أمي عائدة بدون نيل فهو مشغول.

وتقدمت السيارة تقودها السيدة العجوز على الطريق الترابية، عندما أصبحت قرب روكسان وولدها ترجلت من السيارة وهرعت إلى ولدها ومن ثمّ امتدت ذراعاها إلى روكسان ودام العناق مدة طويلة. وصاحت الأم:

- ما أروع العودة إلى الديار، ليتني حملت معي بعض المطر من حيث كنت. المطر غزير قرب الساحل وفي الضواحي الريفية. عزيزتي هل أعددت الشاي.. أحس بالغبار في حلقي!

ردت روكسان مبتسمة:

- كل شيء جاهز لك.

- أعرف هذا.. هل قلقت على فلوفي، قال نيل إنها قفزت إلى السيارة وكان على عجلة من أمره فصحبها.

فتح أليكس فمه ليقول إن الأمر لم يكن كما تقول، فقد شاهد أخاه يربت للكلبة على المقعد أمامه يدعوها للصعود، وساعدها في الواقع على الجلوس فوق معطفه لتقدر على رؤية ما هو خارج النافذة ثم عاد وأقفل فمه.

قدمت روكسان الغداء في الشرفة الجانبية.. وأخبرتهما السيدة هايدواي بكل ما حدث بعد وصولها إلى منزل شقيقتها..

www.liilas.com

فأصغيا إليها وكلاهما يعرف أنها لن تعود إلى ذكر الموضوع سألها أليكس عن بنات خالته:

- وكيف حال البنات؟

- بخير.. ولكن وفاة والدتهن صدمهن.. وهن محظوظات بأولادهن. فلكل امرأة منهن أربعة أولاد. وأتمنى ألا يطول الوقت حتى أرى حفيداً هنا. قال نيل لي إنكما ستتزوجان قريباً. وهذا خبر يسعدني كثيراً.

تبادلت روكسان النظرات مع أليكس. ستشعر السيدة هايدواي بالألم والصدمة بعد أيام، وتمنت من صميم قلبها ألا يحدث ذلك، فقد أحبتها كثيراً ولكن عليها أن تقول لها غداً إنها عائدة إلى المدينة لترى أهلها. سمعت أليكس يرد على أمه:

- سنتباحث هذا الموضوع لاحقاً. هل كانت رحلتك موفقة؟

- كثيراً.. الطائرة مريحة أكثر من السيارة وآمنة.

فكر الجميع في قيادة نيل فأغرقوا بالضحك. ووقف أليكس ليمسح رأس أمه:

- سأترككما لمتابعة الحديث فلدي أعمال كثيرة.

قالت روكسان وهي تجمع فناجين الشاي:

- ستعرف المنطقة بلمح البصر بعودة أمك.. لذلك توقع الزائرين. انظر من في هذه السيارة التي تتوقف أمام الباب.

فقالت الأم بنزق:

- أجل.. انظر من فيها يا أليكس. وأرجو ألا يكون شخصاً هاماً لأنني أريد محادثة روكسان على انفراد.

وسمع صوت باب السيارة يصفق، ثم صوت من بعيد يقول آمراً:

- حذار أيها السائق وأنت تحمل حقائبي.

ذعر أليكس ووقف في باب المطبخ. فسألته أمه بحدة ووقفت على أطراف قدميها بسبب ما اعتلى وجه ابنها من ذعر..

- ماذا جرى؟ أليكس!

ودنت روكسان منه فهمّ بالتكلم ولكن الكلمات أبت الخروج ثم نحّى روكسان جانباً وهرع إلى الخارج، فتبادلت المرأتان النظرات وركضتا خلفه.

صاحت السيدة هايدواي:

- من هذه؟ إنها الفتاة التي رافقتني في القطار.

وتوقفت عن الكلام، وقد مرت في خاطرها فكرة: أتكون هذه الفتاة إحدى فتيات أليكس وقد جاءت من الماضي لتفسد سعادتهم؟

ارتفع صوت الفتاة بفرح وراحة.

- أوه.. أليكسي، كان علي المجيء.. كنت مسافرة وكانت رسالتك تنتظرني في المنزل.. إن السائق يريد مبلغاً كبيراً مقابل الرحلة وأنا مفلسة.. فهل تنقده الثمن.

رفعت روكسان يدها إلى فمها، فقد عرفت الفتاة، وشكرت الله لأن نيل في البلدة.

سألتها السيدة هايدواي:

- من هذه بحق الله؟

وأحست بالغضب لأن الفتاة نادت ابنها باسم اليكسي.

التفتت المرأة إلى الأم وبرقت عيناها:

- آه.. لقد كنا معاً في القطار. ليتني عرفت أنك والدة أليكسي. كان علينا أن نتعارف.

www.liilas.com

ـ أجل.. كنا معاً.. ولكن من أنت؟

ـ أنا شارلوت.. شارلوت مايسون.. خطيبة أليكسي!

قالت هذا بفخر وهي تنظر إلى الرجل الشاحب الواقف مذهولاً.

أردفت: «ما بك؟ ألن تدفع أجرة الرجل؟»

كان السائق يقف مذهولاً أيضاً ينظر من وجه إلى آخر. إنه يعرف شارلوت مايسون، لقد شاهدها أكثر من مرة في البلدة مع أليكس، وأحياناً مع أمه أو مع نيل. إنه يعرفها وهو معجب بوجهها البشوش. والآن هذه السيدة ذات الملابس الضيقة القصيرة تدعي أنها شارلوت مايسون.. لم يفهم من الموقف شيئاً.. ولما نظر إلى الوجوه الدهشة تضاعف جهله ووجد أن من الأفضل أن يكون دبلوماسياً ويرحل.

ـ سأضع الأجرة على الحساب يا أليكس.

وهرع إلى سيارته.

فتمتم أليكس:

ـ ها قد عدنا من جديد...

نظر الجميع إلى السائق ثم إلى بعضهم بعضاً. روكسان شاحبة كأليكس، والسيدة هايدواي مصدومة.. حافظت شارلوت وحدها على هدوئها، ثم قالت بصوت ناعم:

ـ ظننتكم ستسرون برؤيتي.. خاصة أنت أليكسي..

سألت السيدة هايدواي بصوت مختنق وهي تنظر إلى ولدها:

ـ هل اسمها شارلوت حقاً؟ هل هي شارلوت مايسون؟

والتفتت إلى روكسان.

ـ إذن، من أنت؟

ـ أنا روكسان تمبست.

ـ ولكنني لا أفهم، لماذا ادعيت أنك هي؟ تمبست؟ روكسان تمبست؟ إنه اسم المسعفة التي أنقذت المصابين. أخبرني ديك كل شيء عنها عندما كنت عندهم منتظرة نيل. لماذا لا يشرح لي أحد ما يجري؟

قالت روكسان بصوت لطيف متعاطف:

ـ أليكس.. تفضل وشارلوت إلى الداخل. أما أنا فسأشرح كل شيء لأمك. أرجوك سيدة هايدواي رافقيني إلى غرفتي.

* * *

www.liilas.com

١٤ ـ العناق الأخير

جلست السيدة هايدواي مذهولة أما روكسان فكانت مطأطئة الرأس ممتقعة الوجه خجلاً لأنها كانت تقصّ على السيدة القصة كاملة بدءاً من وقوفها قرب البريد وانتهاء بوصف لقائها باليكس.

ـ هذا كل شيء، أما ما تبقى فتعرفينه.

وجدت المرأة الأخرى لسانها أخيراً لتحركه قائلة:

ـ لم أسمع قط قصة مثلها! إنها مستحيلة الحدوث! لا تصدق! يقترح ولدي على فتاة غريبة شيئاً كهذا ثم تقبلين أنت باقتراحه الشنيع هذا! أكنت تعرفينه؟

ـ لا.. أترين، المشكلة كلها تتعلق بروحي المغامرة!

ـ ألاحظ هذا.. ولكن المخاطر التي مررت بها! كان يمكن أن يكون أي شخص.. كان يمكن أن يسبب لك..

فارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي روكسان.

ـ ولكنه لم يفعل، وأنا أطري نفسي لأنني أصيب في الحكم على الطبيعة البشرية. بدا أليكس طيباً وقلقاً.. ثم سارع بقدمني إلى أمه وأخيه. باستطاعتي رعاية نفسي.. فلدي كلبتي ومسدسي.

ـ مسدس؟

ـ لقد علمني والدي الرماية منذ الطفولة. والآن سامحيني على ما فعلته، قبل أن أرحل.

ـ يا طفلتي العزيزة، أنا من عليها طلب الصفح منك بسبب تصرف أليكس وبسبب تصرف نيل الذي أجبرك على تسديد الديون الرهيبة.. والذي كان يراك امرأة ساقطة قذرة! لم أصدق قط أن فتاة مثلك قد توقعه في مشاكل.. ولن تعرفي أبداً مدى سعادتي بوجودك هنا، ومدى خيبة أملي لأنك لن تتزوجي أليكس. إنها ضربة مريرة لي. أنت لا تحبينه.. أليس كذلك؟

فهزت روكسان رأسها.

ـ لن أحصل إذن على الابنة التي أردتها.

ـ ولكن شارلوت وصلت، ولن أستطيع فعل شيء سوى الرحيل. بالتأكيد تفهمين هذا.. وعلى أليكس تدبير أمر حياته من الآن وصاعداً. لقد فعلت ما بوسعي للمساعدة وكنت سعيدة بما فعلت.. ولكنني لا أستطيع القيام بالمزيد وعليّ الرحيل.

غلب على صوت السيدة القلق وهي تقول:

ـ لن ترحلي اليوم؟

فوقفت روكسان لتنظر إلى الخارج، إلى الأفق الريفي البعيد الذي تعلقت به.

قالت: «يجب أن أرحل».

وحدقت السيدة هايدواي إلى رأس الفتاة المنحني إلى الأمام. أوه!... واتسعت عيناها... نيل! أبسببه بقيت هذه الفتاة هذه المدة الطويلة؟ وأخذت تتذكر أشياء مختلفة صغيرة، وتنهدت:

www.liilas.com

- لن أمنعك ما دام الرحيل رغبتك.. أنا مدينة لك يا روكسان.

- لست مدينة لي أبداً. فنيل يكرهني لأجل الديون بما فيه الكفاية، وأعتقد أن خداعي له سيضاعف غضبه وعندها لن أستطيع مواجهته.

- أفهمك.. أخبريني هل أنت الفتاة التي نقلها ديك لإنقاذ المصابين؟

- أجل.. لدي شهادة جامعية في التمريض. وكان هاري على معرفة بهويتي طوال الوقت لأنه تدرب في مستشفى الجامعة التي كنت أدرس فيها.

فتمتمت السيدة:

- هذا يفسر أشياء كثيرة.. هل ستذهبين رأساً إلى بلدك.. أم ستتابعين جولتك؟

- ربما أتابع جولتي، فقد أوصتني والدتي بتصوير الريف والساحل وها أنا حتى الآن لم ألتقط صورة. لقد طلبت مني العودة في جميع رسائلها متوسلة إياي حتى أنهي هذه المهزلة.

- وهل أخبرت أهلك؟

- أجل أخبرتهم منذ البداية.

- وهل اعترضوا؟

- اعتقدها أبي وجدتي مزحة كبيرة، أما والدتي فكان رأيها عكس ذلك.

هبت السيدة هايدواي عن السرير، ولفت ذراعيها حول الفتاة وقبلت وجنتها المبتلة بالدموع:

- لا تبكي روكسان.. يجب أن أشكرك للمساعدة التي

قدمتها لأليكس.. وأنا مقتنعة أنه لن يورط نفسه بمشكلة أخرى فقد تلقى درساً قاسياً واستقر للعمل مع أخيه مسروراً. وأريد شكرك كذلك على رعاية ولدي أثناء غيابي، وعلى راحة البال التي منحتني إياها. في الواقع لا أريد أن ترحلي من هنا.. ولكنني أتفهم أسبابك.. نيل في غضبه بعيد كل البعد عن اللطف، ولا شك أن عنده أقوالاً كثيرة يقولها لك لدى عودته. سأرى الآن ماذا جرى بشارلوت..

أقفلت الباب وراءها بهدوء ثم اتكأت عليه مغمضة عينيها للحظات، فهي تعتقد أن روكسان بحاجة إلى لحظات على انفراد.

كان أليكس واقفاً أمام المدفأة الفارغة وبداه خلف ظهره، وعلى وجهه نظرة بؤس كاملة. عندما شاهد أمه تغيرت أساريره وظهر عليه الأمل، فقد عرف أن معه الآن من يؤازره. أما شارلوت فكانت جالسة في الأريكة العريضة وفي يدها منديل تمسح به دموعها. بدأت السيدة هايدواي كلامها بفظاظة..

- لا أفهم كيف تفعل ما فعلت! أليكس.. أنا مشمئزة منك...

ولم تتم كلامها لأن شارلوت قاطعتها:

- وكذلك أنا، لقد أعطى خاتمي لفتاة أخرى والأسوأ من هذا أنها انتحلت اسمي وادعت أنها أنا!

وجاءها الرد الساخر اللاذع:

- من حسن الحظ أنها لم تكن أنت!

نظر أليكس إلى أمه باحترام، وقال متوسلاً:

- أمي أرجوك. حاولي أن تفهم أسبابي فقد كنت ونيل

www.liilas.com

غاضبين بسبب غيابي عن المزرعة.. آه.. اخرسي يا شارلوت.. ثم هناك الفواتير! لا أستغرب استياءكما مني كما لا أستغرب عدم تصديقكما نيتي في قلب صفحة جديدة في حياتي. وعندما استلمت الرسالة وفيها الخاتم، كان آخر يوم لي.. لقد ظننت أنني أحبها..

فشهقت شارلوت:

ـ آه، أليكسي!

وتابع أليكس متجاهلاً كلامها:

ـ كنتما تنتظران مقابلتها وكان كل شيء مهيئاً لوصولها فعجزت عن القول إنها تخلت عني.

والتفت إلى الفتاة التي كانت تحاول مقاطعته، وصرخ بها:

ـ هذا ما قلته لي.. قلت إن كنت أريدك، فعليّ العودة إلى المدينة لأنك لن تأتي إلى المزرعة. ثم شاهدت فتاة مع كلبها، وبدوت يا أمي سعيدة لأنك ظننتها شارلوت وكان من حسن الحظ أن وافقت على البقاء ولم يندم أحد منا على وجودها.

قالت أمه بحرارة وهي تنظر إليه:

ـ بالتأكيد لم يندم أحد منا.. وماذا الآن؟

فرد أليكس بحزم:

ـ لقد قلت لشارلوت إن كل ما بيننا انتهى إلى الأبد.

لاحظت السيدة هايدواي أن الفتاة لم تكن قلقة أو منزعجة بسبب ما آلت إليه الأمور ولا شك أنها راجعة إلى المدينة لتخبر أصدقاءها عن لا مبالاتها بشأن انفصام هذه العلاقة، وسيضحك الجميع وستصبح مركزاً للاهتمام والجاذبية من جديد حتى يظهر شخص آخر في حياتها بأسر اهتمامها. لم تساعدها مخيلتها في

تصور هذه الفتاة وهي تحلب الأبقار وتطعم الخراف الصغيرة الحليب بالزجاجات... ولكنها قالت لها بصوت لطيف:

ـ لن تستطيعي العودة اليوم، فلا قطار آخر غير الذي سافرنا فيه صباح اليوم، لذلك يجب أن تبقي وتلتقي بابني الأكبر. سنقوم بواجب الضيافة وسيضحيك لرؤية المزرعة.

ابتسمت شارلوت بإغراء:

ـ هذا لطف كبير منك. ولكن ماذا عن الفتاة الأخرى؟ لن أسامحها على ما فعلت.. لا أريد رؤيتها مجدداً، فقد أفقد أعصابي وأكون فظة معها!

ـ سترحل روكسان حالما توضب حقائبها.

ـ أمي.. لا تتركيها ترحل بهذه الطريقة بعد ما فعلته لنا!

بدا الحزن على أليكس.. فردت أمه:

ـ إنها رغبتها. وبسبب صنيعها ومعروفها يا أليكس، يجب أن نحترم قرارها.. إنها تريد الرحيل حالاً.

ألقت روكسان نظرة أخيرة على غرفتها ثم قالت لفلوفي:

ـ تعالي..

وخرجت إلى الردهة، حيث كان أليكس وأمه بانتظارها، فأخذ أليكس حقيبتها وقيد فلوفي بصمت ثم خرج إلى السيارة. قبلت روكسان السيدة هايدواي، وأحست المرأة أن شفتيها ترتعشان. وهمست:

ـ لا تبكي.. فسأراك قريباً.

ـ سأراسلك.

لم تشأ فقدان الاتصال بهذه المرأة، خاصة وأنها ترغب بقوة البقاء على معرفة بأخبار نيل.

www.liilas.com

سألت الأم بلهفة:

- وهل ستذهبين إلى الساحل؟

- أجل.. أعدك بهذا وقبل ذلك سأمر بالبلدة لأزور هاري وأودعه قبل الرحيل.

- ولكنك لن تصلي قبل الظلام!

- لا يهم.. ففي سيارتي الحاجيات الضرورية للنوم في العراء. أليكس..

ومدت يديها إليه فتركتهما الأم يودعان بعضهما بعضاً. فقال بصوت مختنق:

- لا أستطيع التعبير عن مدى شكري العميق.

- لقد أسعدتني مساعدتك. وماذا عن شارلوت.. هل ستبقى هنا؟

- وما رأيك؟... بالتأكيد لا!

- لقد سببت مشاكل كثيرة. أليس كذلك؟ أجل.. بإمكانك معانقتي يا أليكس.

والتفت يداه حولها بعناق حبيب لا عناق صديق، فارتدت بلطف عنه:

- يا إلهي! لم أتوقع منك هذا.. باركك الله.

وربتت على خده مبتسمة ثم انطلقت ترافقها كلبتها. وما هي إلا لحظات حتى ابتعدت السيارة عن المنزل الذي أقامت فيه أسعد أيامها واضطرت إلى التوقف بعد قليل لعدم تمكنها من الرؤية من بين دموعها. لقد كان الفراق مناسباً.. وهكذا أفضل.. فمواجهة نيل، ونظراته الساخرة إليها وإلى شارلوت أمر لن تطيقه أبداً.

قادت سيارتها بسرعة إلى مدخل المستشفى الجانبي بعد السؤال عن هاري في منزله. وما إن أقفلت الباب وراءها، حتى أحست بدفء المكان. ستجد دائماً مكاناً كهذا حيث تستطيع فيه تقديم المساعدة.

- روكسان!

تقدم هاري بثوبه الأبيض مرحباً بها.

- لقد وعدت نفسي بزيارتك مودّعة.

- أراحلة الآن؟

- أجل.. لقد وصلت شارلوت الحقيقية هذا الصباح.

ثم سارعت تقص عليه ما حدث وختمت قولها:

- وهكذا قررت الذهاب لقضاء بضعة أيام في البحيرات ثم التوجه بعد ذلك إلى بلدي. أخبرني كيف حال مريضنا؟

- تعالي وانظري بنفسك.. لقد استعاد وعيه، ولكنني بتّ متأكداً من نجاته.

تفرست روكسان في الوجه الشاحب على الوسادة ثم استدارت مبتعدة.. فسألها هاري:

- هذا يعني أنني لن أراك بعد الآن.

- قد نلتقي ثانية إن عملت في بلدة تعمل أنت في مستشفاها.

في لهجتها تحذير يمنعه من خوض الموضوع الذي أثاره من قبل وانصاع لرغبتها وقال:

- هذا غير ممكن، فمكاني هنا.. فهل لي أن أعانقك مودعاً؟

- أجل إن رغبت في ذلك.

www.liilas.com

وبدت مذهولة، فهذا ما لم يحدث من قبل.

قادت سيارتها بسرعة إلى خارج المدينة تتجه إلى الغرب، وقالت لنفسها:

ـ لقد حدث هذا مرتين في يوم واحد.. هل جن الجميع؟ كلهم يريد معانقتي إلا نيل.. عجباً ماذا يفعل الآن، وهل سأراه ثانية؟

رفرفت عينيها تمنع الدموع من الانهمار، وشدت على شفتيها بتصميم، وضغطت قدمها على دواسة السرعة.

عاد نيل إلى المنزل في السابعة من ذلك المساء، فشعرت أمه بخفقان في قلبها. وعرفت أن الدم تصاعد إلى وجهها عندما سمعت صوتاً وقحاً يقول:

ـ لماذا لا ترفع الصوت أكثر يا أليكسي؟

وارتفع صوت الراديو حتى كاد يصم الآذان، فسأل نيل وهو يطل برأسه إلى المطبخ:

ـ ألدينا زائرون؟ لم يضيعوا وقتهم، أهذا دليل على مدى شعبيتك يا أمي.

فردت أمه عليه وهي تلحق به إلى غرفة الجلوس:

ـ آه. ليست زائرتي.

كانت شارلوت مستلقية فوق الأريكة والملل باد عليها، فقد صحبها أليكس وأمه أميالاً وأميالاً من الأشجار والأراضي لرؤية الخراف. وعندما تركها أليكس تجرب حلب بقرة اكتشفت أن شرائط التسجيل قديمة والمسجلة مكسورة. ولم تعرض المساعدة في المطبخ، وبات الراديو تسليتها الوحيدة. ما إن سمعت الصوت حتى رفعت رأسها لتنظر إلى القادم الجديد

وسرعان ما اتسعت عيناها الجميلتان... إنه أخو أليكس بدون شك وهو طويل وأسمر ووسيم بطريقة فظة... لماذا لم تلتق به قبل أليكس؟ كان يمكن أن يجعل من حياة الريف مثيرة للاهتمام.

أخذ نيل يتطلع إلى ما حوله وكأنه يفتقد شيئاً، فقد اعتاد أن تسرع إليه فلوفي كل يوم. ثم أدرك أن شيئاً قد حصل لأن أليكس يعبث بأحد الأشياء الثمينة قلقاً. وأمه تعض شفتها، والفتاة المستلقية أمامه تنظر إليه بطريقة لا تعجبه. رد إليها نظرتها، وعيناه تتجولان في جسدها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، وتراجعت شفتاه بسخرية:

ـ حسناً؟

ونظر إلى أمه منتظراً منها القيام بالتعارف فقالت شارلوت بصوت مغناج:

ـ مفاجأة! لقد وصلت اليوم. جئت في القطار نفسه مع أمك صدفة. أظنك نيل؟

فرد بفظاظة:

ـ أجل.. ومن أنت؟

ـ أنا شارلوت مايسون.. الحقيقية!

ـ شارلوت؟

والتفت إلى أخيه وأمه فلاحظ الطريقة التي يتجنبان فيها النظر إليه:

ـ ما معنى هذا؟ أين هي روكسان؟

فتمتمت أمه:

ـ لقد رحلت. أترى يا عزيزي، لم تكن خطيبة أليكس...

www.liilas.com

فصاحت الفتاة:

- لا.. بل كانت محتالة، وأعتقد أن باستطاعتي مقاضاتها.

فصاح نيل بوحشية وعنف:

- ما هذا كله حباً بالله؟ أرجو أن تتوقفي عن مقاطعتي وأن تصمتي وتتركي أمي وأخي يشرحان لي سبب وجودك هنا.

فقالت الأم بصوت ضعيف:

- أليكس.. من الأفضل أن تشرح له.

راقبت المسكين وهو يحاول متلعثماً قص القصة عليه مجدداً. وشاهدت تعابير وجه نيل تنقلب إلى ذهول، ثم انعقد حاجباه الكثيفان، واشتدت خطوط فمه، وتصاعدت العاصفة إلى عينيه:

- ولكن روكسان! من هي؟ أحقاً هي ليست شارلوت؟

فهز أليكس رأسه إيجاباً وتحرك خطوة إلى الوراء عندما لاحظ أن أخاه يتقدم ببطء نحوه..

نظرت إليهما شارلوت مذهولة ثم قالت بتعجرف:

- كانت محتالة مغامرة.. انتحلت اسمي..

فصرخ فيها نيل من بين أسنانه:

- قلت لك اخرسي! أليكس، من كانت؟

- اسمها الحقيقي روكسان تمبست. لم أكن أعرفها بل لم ألتق بها حتى ذلك الصباح.. صدقاً يا نيل!

- ومع ذلك فعلت ما فعلته لأجلك.. سددت عنك فواتيرك..

فابتسم أليكس:

- لا.. لم تفعل هذا من أجلي.. بل من أجل الشيطان على

ما أعتقد.

- تمبست.. لقد سمعت بهذا الاسم مؤخراً.. آه! الفتاة التي أنقذت الجريحين.

واهتز رأسان معاً وقالت الأم:

- هي نفسها.. إنها مسعفة من الدرجة الأولى... وقد جاءت إلى هنا في إجازة.

- إجازة؟ بعد ما فعلته، وما أجبرتها عليه!

والتفت إلى أمه مذهولاً:

- كل هذا صحيح إذن؟

- صحيح كل الصحة.

- لم تكن تحبها يا أليكس؟ ولم تكن تريد الزواج بها؟

فنظر أليكس إليه، ولاحظ اللهفة في تعبيرات وجهه فتنهد.. هكذا الأمر إذن؟ رد عليه: لا يا نيل.. لم أكن أعني لها شيئاً.

وشاهدت السيدة هايدواي اللمعان الفجائي في عينيه، فأحست بالراحة. التفت لبواجهها:

- أين ذهبت يا أمي.. أتعرفين؟ هل أخبرتك؟

- لقد ذهبت إلى الساحل، كانت تقصد ذلك المكان عندما التقت أخاك. لديها بطانيات ووسادة في السيارة وستنام على الطريق

قفز نيل نحو الباب. فسأله أليكس:

- إلى أين؟

- لأعيدها إلى حيث تنتمي.

فسألته أمه: «لماذا؟»

www.liilas.com

- لأنني لا أستطيع العيش بدونها.. هذا هو السبب.

ثم نظر إلى الفتاة المستلقية بازدراء وسخرية:

- أنت كما تخيلت يا شارلوت. شعرت أن في الأمر خطأ ما. فما من أحد يستطيع جر أخي إلى ما كان عليه سوى حمقاء مثلك، ولم تكن روكسان بأية طريقة حمقاء مثلك أنت!

فصاحت أمه:

- ولكن العشاء يا نيل..

- فليذهب العشاء إلى الجحيم.

واختفى.

فقالت شارلوت بصوت مرتفع غبي:

- أرفض البقاء إذا عادت تلك الفتاة.. ماذا دهاكم جميعاً؟ لقد فعلت ما لا يغتفر.. ادعت أنها أنا..

فقاطعها أليكس متجهماً:

- أظن أن من الأفضل أن أقلك إلى البلدة لتكوني صباحاً جاهزة لركوب القطار، فأحضري حقائبك واخرجي من هنا.

وسمعوا صوت السيارة تنطلق في الخارج بنيل.. ونهضت شارلوت ببطء من مكانها.. وخرجت من الغرفة فمدت السيدة هايدواي يديها إلى ولدها الأصغر، وقالت بصوت منخفض:

- يا حبيبي المسكين.. هل ستتحمل وجودها إذا عاد بها نيل إلى هنا؟

فقال متوتراً:

- أجل.. لقد كبرت.. وعلى كل الأحوال.. لم تكن لدى نيل فرص كثيرة.. وسيسعدها.

قاد نيل سيارته كالمجنون إلى البلدة، ثم إلى ما وراءها،

بدون أن يتذكر أن أمه الطيبة قد أشارت إليه بأن روكسان متوجهة إلى الساحل. لم يكن هناك بلدات على الطريق لتقيم فيها وهذا يعني أنه لن يجد صعوبة في اقتفاء أثرها.. أخذ يتطلع إلى جانبي الطريق ثم ضغط مكابحه فجأة وقد لاحظ أثراً جديداً لإطارات سيارة. وعرف أين هو.. فالطريق تقود إلى منجم قديم مهجور.

وجد السيارة الصغيرة تحت شجرة كبيرة، لمّا أصبح قربها سمع نباحاً مألوفاً يحييه، فتنهد تنهيدة عميقة. أغلق الباب، تاركاً المصابيح الأمامية مضاءة فشاهد فوهة مسدس من النافذة النصف مفتوحة في السيارة الأخرى، فتوقف في مكانه. وقال بصوت مرتعش راحة وضحكاً.

- هل عليّ أن أرفع ذراعي في الهواء؟

وسمع صرخة مدوية مذهولة ومسرورة وسعيدة:

- نيل!

- أجل روكسان، هذا أنا ولا أظنك بحاجة إلى المسدس.

- ليس له فائدة على كل الأحوال، فهو غير محشو. لماذا جئت؟

- لأعيدك إلى مزرعة «الأوز البري».

- أوه! ولكن لماذا؟ وكيف وجدتني؟

تمنى لو تجلس ليراها، وبدا صوتها مخنوقاً. ورد عليها:

- أخبرتني أمي أنك متجهة في هذا الاتجاه. ولكن ستعودين معي لأن مغامرتك انتهت.. أين أنت يا روكسان؟ لماذا لا تجلسين لأنظر إليك؟

- لأنني لا أرتدي ثيابي.

www.liilas.com

- وهل خلعت ثيابك لتنامي هنا وحدك في البرية؟

- ولِمَ لا؟ لست معتادة على النوم بالثياب التي ألبسها نهاراً.

فصاح بها غاضباً:

- توقفي عن مناكدتي.. إن لم تجلسي جررتك إلى الخارج!

وعلمت أنه ليس تهديداً اعتباطياً، فرفعت رأسها ببطء، فتنهد.. فذلك الوجه الجميل هو وجه الفتاة التي كرهها في البداية ثم أحبها حباً كبيراً أخافه.

وهمست:

- ربما لم تعرف الحقيقة فلو عرفتها لما رغبت في إعادتي إلى مزرعتك.

- على العكس.. لقد عرفت كل شيء.. وأشكر الله لأنك لست شارلوت.

فقالت متأثرة:

- ولكنها رائعة الجمال، أليست هكذا؟

فضحك:

- ليس السبب جمالها بل السبب عدم خطوبتك لأليكس.. وعدم رغبتك في الزواج به. أنت حرة الآن لتستمعي إلى ما أريد قوله منذ أشهر.

حدقت إليه وهي لا تصدق متسائلة عماذا كانت تسمع بشكل صحيح، وأخفضت زجاج النافذة لتسمع بشكل أوضح. وعلى الفور وضع يده على بعد بضع إنشات من وجهها، ورفع إصبعه ليلمس خدها.

- قد لا ترغبين في سماع ما سأقوله.. لقد عاملتك بقسوة

في البداية لأنني ظننتك شارلوت.. فكيف لي أن أعرف الحقيقة؟ ولكن اكتشافي أنني أقع في حب الفتاة التي يجب أن أكرهها بسبب ما فعلته لأخي صدمني. ووكسان كان الأمر بالنسبة لي مأساة. لم أحب أحداً من قبل. ولم يكن لدي الوقت الكافي للتفتيش عمن يشاركني حياتي، ولم يكن لدي الرغبة في هذا. ثم جئت إلى المزرعة.. ولم تكن محبتك للأرض مفتعلة أليس كذلك؟

- صحيح يا نيل.. لم تكن مفتعلة.

- عرفت هذا عندما عملنا معاً على إصلاح التراكتور، يوم عرضت علي تسديد ديون أليكس بالعمل، وكان أمراً رهيباً! ثم عندما شاهدتك فوق العمود والأفعى تحت قدميك. أدركت ما أشعر به نحوك ولكنني بسبب أليكس لم أستطع البوح بمشاعري.

فنظرت إليه متسائلة:

- ألم تنزعج أو تغضب عندما عرفت بخداعي؟

- بل أحسست بالراحة، وما أقلقني أكثر هو ما تظنينه بي بعد الطريقة التي عاملتك بها.

- إن انتظرت حتى أرتدي ثيابي أخبرتك.

فانحنى ليعانقها من شباك السيارة.

- أوه.. نيل.. هذه ثالث مرة اليوم.. وهي أروع المرات!

فتمتم بخشونة:

- توقفي عن الألغاز وارتدي ثيابك.

رفع فلوفي بين ذراعه وهي تصدر الأصوات السعيدة:

- كنت تعرفين.. أليس كذلك؟

www.liilas.com

وسمع ضجة في السيارة، ثم ظهرت أمامه. أظهرت أنوار السيارة بريق عينيها، وبدت لعيني نيل رائعة الجمال. فأنزل الكلبة ووضع يديه على كتفيها.

ـ نعم آنسة تمبست؟ ماذا كنت تحاولين القول؟

ـ أوه، وهل تعرف هذا أيضاً؟

ـ لقد أخبرتني أمي بكل شيء. هل لي أن أسأل لماذا وأنت معتادة على الجروح بدوت مذعورة من جرحي؟

ـ لأن الجرح كان في ذراعك أنت، فما يؤلمك يؤلمني. وكنت خائفة إن عرفت الحقيقة.. آه يا نيل.. أحبك.. وخفت أن تكرهني أكثر.

تحركت يداه إلى ذراعيها ببطء ثم إلى خصرها وجذبها نحوه.

ـ إذن هذا هو سبب هروبك؟ أيتها الحبيبة، ما أشد ما كان الأمر متشابكاً. ولكنني أستطيع الآن أن أطلب منك الزواج. وهل من مكان أفضل من هنا لهذا الطلب حيث الغيوم فوقنا تعد بالمطر وحيث فلوفي الرقيب الوحيد علينا. روكسان، روكسان.. يجب أن تصدقيني عندما أقول لك إنك الفتاة المناسبة الوحيدة لي، وإنني سأحبك حتى يوم مماتي.

ـ أصدقك يا نيل.

شاهدت فلوفي اتحادهما فأمالت رأسها إلى جانبها، كان ذنبها يتحرك بسرعة وحماس ليثير الغبار من حولها.

* * *